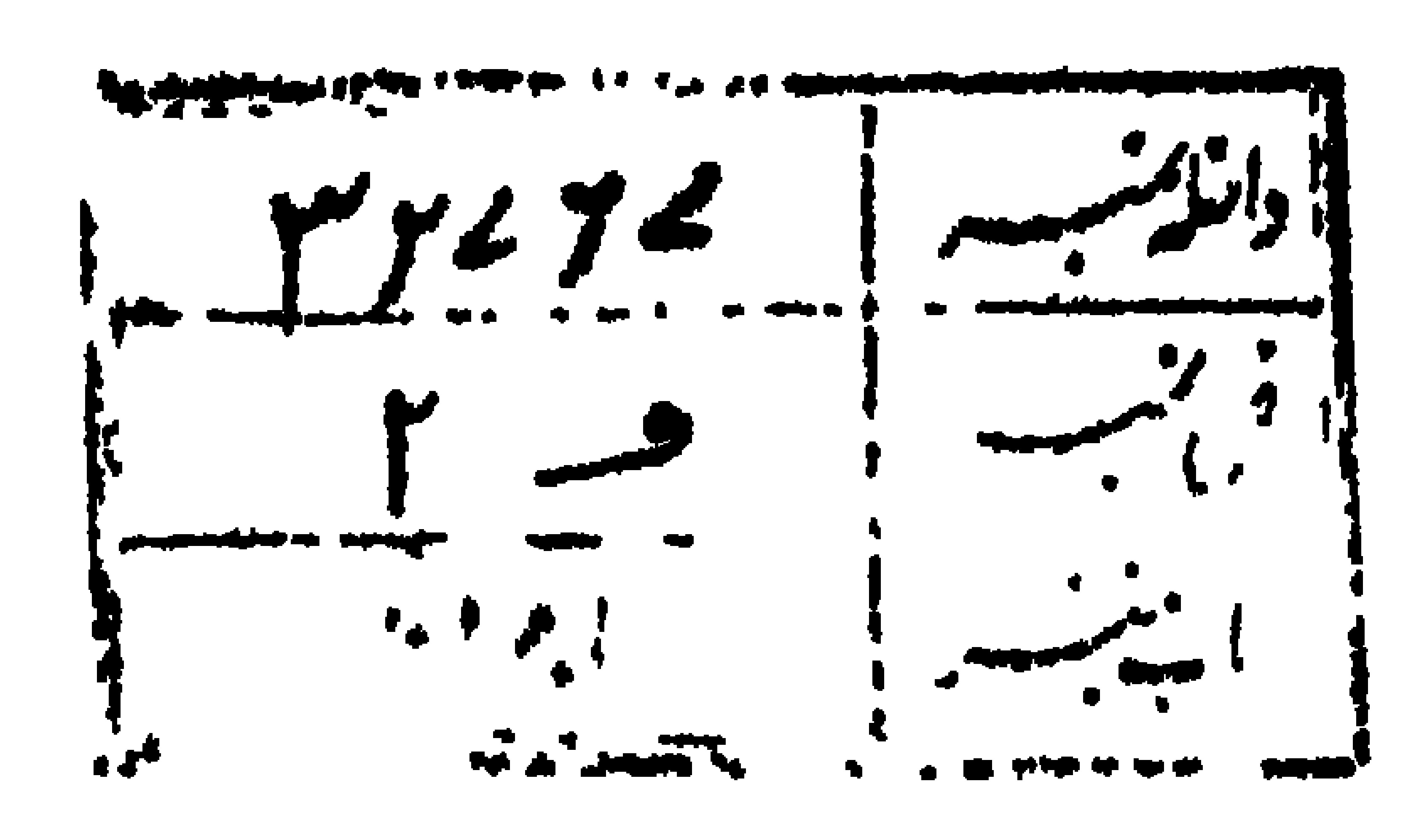


بلاغة العرب

فى القرن العشرين

وهي

شذرات مختارة من أقلام رسل البلاغة العربية فى أمريكا

(جبران خليل جبران)

أمين الريحانى . ميخائيل نعيمة ، ايليا ابو ماضي ، الياس فرحات



تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

يهمني أن أقدم هذا الكتاب لكل متعلم يود أن يكون كاتباً بليغاً ، ليتخذ هذه الأساليب الطريفة اماماً له يأتم بها ويجتهد أن يحاكيها أسلوباً وتوقيعاً .

هذه الأساليب سيكون لها المستقبل الزاهر ، وسينبئ بشيوعها عصر ذهبي مشرق ، حافل بأنواع الجمال والكمال .

نستطيع أن نسمي هذه المناحي الكتابية ، والطرق الانشائية بـ (الأساليب الحية) لأنها حقيقة تحيي في نفس قارئها روح الجمال ، وعظمة الابداع . وجلال المقصد .

ها أنت أيها القارئ الكريم ستقلب صفحات كتابنا وتشرع في قراءته بتلهف زائد ، وشغف لا مزيد عليه ، ولكن قف بربك ولو هنيهة صغيرة قبل أن تأخذ بتذوق جمال هذه الأساليب ، قف لأخبرك أن هذه الكتابات لم تكتب لتكون سلوة لك تمر عليها بنظرك دون أن تحرك لسانك بتلاوتها ، انما هي أشعار منثورة ومنظومة أطلب منك بحرمة أصحابها أن لا تقرأ قطعة منها الا بالترتيل الذي يناسبها ويلائم نفسك فيملأها جمالا وجلالا .

ترنم ما شئت عند قراءتها حتى تشارك أصحابها بشعورهم
وتستأنس بحديثهم . استصحب هذا الكتاب عند ما تهم بالذهاب
للرياضة وهناك عند ما تجلس على ضفاف النيل أو فى أحد
المتنزهات العامة أو الخاصة فك عقال الهيبة والوجل وترنم بما
فى هذا السفر النفيس ترنم البلبل الغريد وشارك أصحابها ولو
حتى تكتنه سر نبوغهم وتفوقهم . فتعلم أنهم انما كتبوا
ن ذاقوا مرارة الحياة ولذاتها وخبروها خبرة رفعتهم الى
ن السمو لا تستطيع أن تحلق فى سمائهم الا اذا سرت على
وترسم المثل .

لعلّ أنكر أن بعض رجال الأدب العربى سبق لهم أن ساروا
هذه الأساليب وأخص منهم بالذكر أمير المؤمنين على بن
طالب ، فمن ذا الذى يقرأ رسالة من رسائله أو خطبة من
ولا يدهش لجمال أسلوبه البيانى . ولو تأملنا لأسلوب
ن الكريم لوجدناه أمام كل مؤتم بالأساليب الحية لأنه
توقيعاً موسيقياً ينتهى عند كل وقفة منه بخاتمة لها جرس
ذ الألباب بروعة جماله وجلاله .

أريد أن أقول اننى لم أجمع فى مختاراتى هذه عقيدة سياسية
مذهباً دينياً أو مبدأ كفرياً انما كان غرضى الوحيد هو
الأسلوب وطريقة التعبير لا غير فليرح النقدة أنفسهم

ولينظروا الى الكتاب كما نظرت اليه .

أما الطريقة التى سرت عليها فى جمع المختارات فهى الـ
التى ارتاحت لها نفسى فأنا لم أجمعها مرتبة ترتيباً مقسما لنظ
ولم أراع الترتيب على الحروف لأنى لا أريد أن أجعـل
المختارات قاموساً أدبياً ولكن أريد أن تكون خير كتاب
أقدمه لكل متعلم ومتعلمة .

ولا يفوتنى أن أقدم عظيم تشكراتى لجناب الـ
شخاشيرى لأنه هو الذى يسر لى جمع هذه المختارات بالا
مجلة الفنون التى تصدر فى نيويورك فقد كانت لى المعين
الذى استقيت منه هذه الشذرات العذبة .

ولم يخل كتابنا من بعض أغلاط مطبعية على شـدة
وعناية المطبعة بذلك ولكنها قليلة ولله الحمد

محيي الدين رضا

فسطاط مصر فى ٧ المحرم سنة ١٣٣٩

جبران خليل جبران

ابتدع جبران لنفسه طريقة فى الكتابة اكتسب بها اعجاب الجمهور وامتلك قلوب القراء بموضوعاته الشائقة فتحداه فى أسلوبه كثيرون من الكتاب المعاصرين ولكن شتان ما بين الثرى والثريا

ولد جبران سنة ١٨٨٣ فى بشرى من أعمال لبنان وترعرع فى شمالى لبنان تحت سمائه الحرة وفوق أنقاض العصور السالفة . ثم تتلمذ فى مدرسة الحكمة فى بيروت فتلقن فيها العربية . وهنالك بدأ قلمه السيال يظهر ما تكنه نفسه الكبيرة من أسرار البلاغة والبيان . ولم يلبث بعد خروجه من المدرسة أن هاجر الى باريس فأقام فيها أشهراً . ثم هاجر الى الولايات المتحدة فقطن بوسطن مدينة العلم زمناً اشتغل فيه بالكتابة والتصوير . ثم عاد الى باريس سنة ١٩٠٨ ليتمم فيها دروسه الفنية فأقام فيها ثلاث سنوات حاز فى آخرها شهادة الامتياز من كلية الفنون الافرنسية

معرزا على أربعائة من رفاقه المصورين المختلفي الجنسية . وعلقت رسومه في المعرض الأمريكي السنوي . وسمي عضوا في جمعية الفنون الافرنسية . ونال عضوية الشرف في جمعية المصورين الانكليزية . ثم عاد الى الولايات المتحدة واتخذ نيويورك مسكنا له . وهو الآن عضو في جمعيات فنية وشعرية عديدة . وله من المؤلفات المطبوعة « نبذة في الموسيقى » و « عرائس المروج » و « الارواح المتمردة » و « الاجنحة المتكسرة » و « دمعة وابتسامة » و « كتاب العواصف » و « المصطفى » و « المجنون بالانكليزية وغيرها » و « المواكب » وله ديوان شعر طي قبس كله عواطف وعواصف روحية .

* *

هذه كلمة صغيرة عن ترجمة جبران واليك ما كتبه نفسه عن صورته وحياته الروحية :—

يوم مولدي

كتبت في باريس في ٦ كانون الاول سنة ١٩٠٨

في مثل هذا اليوم ولدتني أمي

في مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة ، وضعتني السكينة بين أيدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك

ها قد سرت خمسا وعشرين مرة حول الشمس . ولا أدري كم مرة سار القمر حولي ، لكنني لم أدرك بعد أسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام

قد سرت خمسا وعشرين مرة مع الأرض والقمر والشمس والكواكب حول الناموس الكلي الأعلى . ولكن هوذا نفسي تهمس الآن أسماء ذلك الناموس مثلما تردد الكهوف صدى أمواج البحر . فهي كائنة بكيانه . ولا تعرفه وتنشد أهازيج مده وجزره ولا تستطيع إدراكه

منذ خمس وعشرين سنة خطتني يد الزمان كلمة في

كتاب هذا العالم الغريب الهائل . وها أننا كلمة مبهمة ، ملتبسة المعاني . ترمز تارة الى لا شيء . وطورا الى أشياء كثيرة

ان التأملات والأفكار والتذكارات تتزاحم على نفسي في مثل هـذا اليوم من كل سـنة ، وتوقف أمامي مواكب الأيام الغابرة ، وتريني أشباح الليالي الماضية ، ثم تبـددها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ، فتضمحل في زوايا غرفتي اضمحلال أناشيد السواقي في الأودية البعيدة الخالية

في مثل هـذا اليوم من كل سنة تجيء الأرواح التي رسمت روحي متنقلة كغمة تحوى من جميع أطراف العالم ، وتحيط بي مرتلة أغاني الذكرى المحزنة ، ثم تتراجع على مهل وتختفي وراء المرئيات . كأنها أسراب من الطيور هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذوراً تلتقطها ، فرفرفت هنيهة ثم طارت سابحة الى مكان آخر

في هـذا اليوم تنتصب أمامي معاني حياتي الغابرة ،

كأنها مرآة منثية أنظر فيها طويلا فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات ، وملامح الامال والأحلام والأماني المتجمدة كملامح الشيوخ ، ثم أغمض عيني وأنظر ثانية في تلك المرآة . فلا أرى غير وجهي . ثم أحدق بوجهي فلا أرى فيه غير الكآبة، ثم أستنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة

في الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيراً . وكثيرا ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه والذي أحببته عندما كنت صبياً ما زلت أحبه الآن . والذي أحبه الآن سأحبه الى نهاية الحياة ، فالمحبة هي كل ما أستطيع أن أحصل عليه . ولا يقدر أحد أن يفقدني إياه

قد أحببت الموت مرات عديدة ، فدعوته بأسماء عذبة وتشببت به سراً وعلناً . ولئن لم أسل الموت ولا نقضت له عهداً ، فاني صرت أحب الحياة أيضاً . فالموت والحياة قد تساويا عندي بالجمال ، وتضارعا باللذة ، وتشاركا

بأسماء شوقي وحنيني ، وتسامها محبتي وانعطافي

وقد أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهوان . وتتسع باتساع ادراكي خضوعهم للاصنام المخيفة التي نحتتها الاجيال المظلمة. ونصبتها الجهالة المستمرة : ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد . لكنني كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبة الحرية ، وأشفق عليهم ، لانهم عميان يقبلون أحناك الضواري الدامية ولا يبصرون . ويمتصون لهاث الافاعي الخبيثة ولا يشعرون ويحفرون قبورهم بأظافرهم ولا يعلمون . قد أحببت الحرية أكثر من كل شيء لانني وجدتها فتاة قد أضنتها الانفراد ، وأنحلها الاعتزال حتى صارت خيالا شفافا يمر بين المنازل ، ويقف في منعطفات الشوارع . وينادي عابري الطريق . فلا يسمعون ولا يلتفتون

وفي الخمس والعشرين سنة قد أحببت السعادة مثل جميع البشر ، فكنت أستيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبون لكنني لم أجدها قط في سبيلهم ، ولا رأيت أثر قدميها

على رمال الخيمة بقصورهم . ولا سمعت صدى صوتها خارجا من نوافذها كلهم . ولما انفردت بقلبي سمعت نفسي تهمس في أذني قائلة : « السعادة صبية تولد وتحيا في أعماق القلب ولن تجيء اليه من محيطه . » ولما فتحت قلبي لكي أرى السعادة وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها ولكنني لم أجدها

وقد أحببت الناس — أحببتهم كثيرا — والناس في شرعي ثلاثة :

واحد يلعن الحياة ، وواحد يباركها ، وواحد يتأمل بها . فقد أحببت الاول لتعاسته . والثاني لسماحته . والثالث لمداركه

هكذا انقضت الخمس وعشرون سنة . وهكذا ذهبت أيامي ولياليّ متسارعة . متتابعة . متساقطة من حياتي . مثلما تتناثر أوراق الشجر أمام ريح الخريف

واليوم . قد وقفت متذكرا . وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة ، أنظر إلى كل ناحية فلا أرى ماضي حياتي

أترا أستطيع أن أومئ إليه أمام وجه الشمس قائلا :
« هذا لى » ولا أجد لفصول أعوامى ثمة سوى أوراق
مخضبة بقطرات الحبر السوداء ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة
خطوطا وألوانا متباينة متناسقة . فى هذه الاوراق المنثورة
والرسوم المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفى وأفكارى
وأحلامى . مثلما يدفن الزارع البذور فى بطن الارض ،
ولكن الزارع الذى يخرج إلى الحقل ويلقى البذور بين ثنايا
التراب يعود إلى بيته فى المساء آملا راجيا منتظرا أيام
الحصاد والاستغلال

أما أنا فقد طرحت حبات قلبى بلا أمل . ولا رجاء .
ولا انتظار

والآن ، وقد بلغت هذه المرحلة من العمر ، فتراءى
لى الماضى من وراء ضباب التنهيد والاسى ، وبان لى ذرى
المستقبل من وراء نقاب الماضى . أقف وأنظر إلى الوجود
من خلال بلور نافذتى ، وأرى وجوه الناس وأسمع أصواتهم
متصاعدة إلى الفضاء ، وأعى وقع أقدامهم بين المنازل .

وأشعر بتلامس أرواحهم وتموجات آمالهم ونبضات قلوبهم أيضا . فأرى الاطفال يلعبون ويتراكضون ويذرون التراب بعضهم في وجوه بعض ضاحكين مقهقهين ، وأرى الفتيان يسيرون بعزم رافعين رؤوسهم كأنهم يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشي الغيوم المبطنة بأشعة الشمس . وأرى الصبايا يخطرن ويتثنين كالاغصان ويتبسمن كالازهار وينظرن الى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالميل والانعطاف ، وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودبي الظهور ، متوكئين على العصي محدقين بالارض كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها . أقف بجانب نافذتي وأنظر متأملا بجميع هذه الصور والاشباح الساكنة بسيرها المتطايرة بدبيبها في شوارع المدينة وأزقتها . ثم أنظر متأملا بما وراء المدينة . فأرى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب ، والسكينة المتكلمة ، والتلول الباسقة ، والاودية المنخفضة ، والاشجار النامية ، والاعشاب المتمايلة ، والازهار المعطرة . والانهار المترنمة ، والاطيار المغردة ، ثم

أنظر الى ما وراء البرية . فأرى البحر بكل ما فى أعماقه من الغرائب والعجائب والمدافن والاسرار . وما على سطحه من الامواج المزبدة . العنقودية . المتسارعة . المتموجة . والابخرة المتصاعدة . المتبددة . المتساقطة . ثم أنظر متأملا بما وراء البحر . فأرى الفضاء غير المتناهى بكل ما فيه من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة . والشموس . والاقمار ، والسيارات والثوابت ، وما بينها من الدوافع والجواذب المتسالمة . المتنازعة . المولدة . المحولة . المتمسكة بناموس لا حد له ولا مدى . الخاضعة لشريعة ليس لبدئها ابتداء ولا لنهايتها نهاية . أنظر وأتأمل بجميع هذه الاشياء من خلال بلور نافذتى فأنسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الاجيال وما سيأتى بعدها من قرون . يظهر لى كيانى ومحيطى بكل ما أخفاه وأعلنه كذرة من تنهدة طفل ترتجف فى خلاء أزلى الاعماق ، سرمدى العلو . أبدى الحدود . لكنى أشعر بكيان هذه الذرة ـ هذه النفس ـ هذه الذات التى أدعوها « أنا » . أشعر بحركتها وأسمع

صحيحها . فهى ترفع الان أجنحتها نحو العلاء وتمد يديها الى كل ناحية . وتقابل مرتعشة فى مثل اليوم الذى أبدتها الوجود . وبعوض متصاعد من قدس أقداسها . تصرخ قائلة : « سلام أيتها الحياه . سلام أيتها اليقظة . سلام أيتها الرؤيا . سلام أيها النهار الغامر بنورك ظلمة الارض . وسلام أيها الليل المظهر بظلمك أنوار السماء ، سلام أيتها الفصول . سلام أيها الربيع المعيد شبيبة الارض ، سلام أيها الصيف المذيع مجد الشمس . سلام أيها الخريف الواهب ثمار الاتعاب وغلاة الاعمال . سلام أيها الشتاء المرجع بثورته عزم الطبيعة . سلام أيتها الاعوام الناشرة ما أخفته الاعوام . سلام أيتها الاجيال المصلحة ما أفسدته الاحقاب . سلام أيها الزمن السائر بنا نحو الكمال . سلام أيها الروح الضابط أعنة الحياة . المحجوب عنا بنقاب الشمس ، وسلام لك أيها القلب . لانك تستطيع أن تهتف بالسلام وأنت مغمور بالدموع . وسلام لك أيتها الشفاه . لانك تتلفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة

بالأمس

كان لي بالأمس قلب فقضى   وأراح الناس منه واستراح
ذلك عهد من حياتي قد مضى   بين تشبيب وشكوى ونواح
إنما الحب كنجم في الفضا   نوره يمحى بأنوار الصباح
وسرور الحب وهم لا يطول   وجمال الحب ظل لا يقيم
وعهود الحب أحلام تزول   عندما يستيقظ العقل السليم

*

كم سهرت الليل والشوق معي
ساهر أرقبه كي لا أنام
وخيال الوجد يحمي مضجعي
قائلا «لا تدن، فالنوم حرام»
وسقامي هامس في مسمعي
«من يرد الوصل لا يشكو السهاد»
ثلاث أيام تقضت، فابشري
يا عيوني، بطيف الكرى

واحذري يا نفس . ألا تذكري
ذلك العهد وما فيه جرى

***

كنتُ اذ هبّت نسيمات السحر أتلوى راقصاً من مرحي
واذا ما سكب الغيم النضر خلته الراحَ فاملي قدحي
واذا البدر على الافق ظهر وهي قربي بحثتُ دهالايستحي
كل هذا كان بالامس . وما كان بالامس تولى كالضباب
ومحا السلوان ماضيّ كما تفرط الايام عقداً من حَباب

***

يابني أي اذا جاءت سعد تسأل الفتيان عن صب كئيب
فاخبروها أن أيام البعاد اخمدت من مهجتي ذاك اللهيب
ومكانَ الجمر قد حل الرماد ومحا السلوان آثار النحيب
فاذا ما غضبت لا تغضبوا واذا ناحت فكونوا مشفقين
واذا ما ضحكت لا تعجبوا ان هذا شأن كل العاشقين

***

ليت شعري: هل لنفس رجوع أو معاد لحبيب وأليف ؟

هل لنفسي يقظة بعد الهجوع   تريني وجه مضنى الخريف .

هل يعي أيلول[1] أنغام الربيع   وعلى أذنيه أوراق الخريف :

لا ، فلا بعث لماضي أو نشور   لا ، ولا يخضر عود الأملِ

ويد الحصاد لا تحيي الزهور   بعد أن تبرى بحد المنجلِ

***

شاخت الروح بجسمي وغدت

لا ترى غير خيالات السنين

فإذا الآمال في صدري مشت

فبعكاز اصطباري تستعين

والتوت مني الأماني وانحنت

قبل أن أبلغ حد الاربعين

تلك حالي فإذا قالت رحيل

« ما عسى حالته » قولوا « الجنون »

وإذا قالت « أيشقى ويئن

ربه ؟ » قولوا « ستشفيه المنون »

---

(١) شهر سبتمبر

مناجاة ارواح

استيقظي يا حبيبتي : استيقظي لان روحي تناديك من وراء الابحار المائلة ، ونفسي تمد جنحيها نحوك فوق لاامواج الازبدة الغضوبة . استيقظي ، فقد سكنت الحركة وأوقف الهدوء ضجة سنابك الخيل ووقع أقدام العابرين وعانق النوم أرواح البشر ، فبقيت وحدي مستيقظا . لان الشوق ينتشلني كلما أغرقني النعاس ، والمحبة تدنيني اليك عندما تقصيني الهواجس ، قد تركت مضجعي يحبيبتي خوفاً من خيالات السلو المختبئة بين طيات اللحف ورميت بالكتاب ، لان تأوهي قد أباد السطور من صفحاته . فأصبحت خالية بيضاء أمام عيني . استيقظي : استيقظي ياحبيبتي واسمعيني .

ـ ها أنذا يا حبيبي قد سمعت نداءك من وراء الابحار وشعرت بلامس جناحيك . فانتبهت وتركت مخدعي وسرت في الاعشاب ، فتبللت قدماي وأطراف ثوبي من

ندى الليل . ها أنا واقفة تحت أغصان الجوز المزهرة أسمع نداء نفسك يا حبيبي :

ـ تكلمي يا حبيبتي : ودعي أنفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوي من أودية لبنان . تكلمي . فلا سامع غيري ، لأن الظلمة قد دحرت جميع الخلائق الى أوكارها . والنوم قد أسكر سكان المدينة وبقيت وحدي صاحياً

*

ـ قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان يا حبيبي :

ـ قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداء كثيفاً مبطناً بدخان المعامل وأنفاس الموت وسترت به أعضاء المدينة يا حبيبتي :

*

ـ قد رقد سكان القرى في أكواخهم القائمة بين أشجار الجوز والصفصاف وسبحت نفوسهم نحو مسارح الأحلام يا حبيبي :

— قد أناخت أحمال الذهب قامات البشر ، وأوهنت عقبات المطامع ركبهم ، وأثقلت المتاعب أجفانهم ، فارتموا على الفرش وأشباح الخوف والقنوط تعذب قلوبهم يا حبيبتي

•••

— قد سرت فى الأودية خيالات الأجيال الغابرة ، وحامت على الروابى أرواح الملوك والأنبياء ، فاتثنت فكرتى نحو مسارح الذكرى وأرتنى عظائم الكلدانيين وفخامة الاشوريين ونبالة العرب

— قد سرت في الأزقة أرواح اللصوص القاتمة ، وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعى الشهوات ، وجرت في منعطفات الشوارع أنفاس الأمراض ممزوجة بلهاث المنايا ، فأزاحت الذكرى ستائر النسيان وأرتنى مكاره صادوم وآثام عاموره

— قد تمايلت الأغصان يا حبيبي وتحالف حفيفها مع خرير ساقيـة الوادي ورددت على مسامعي نشيد سليمان ورنات قيثارة داود وأغاني الموصلي

— قد ارتعشت نفوس أطفال الحي. وأقلقهم الجوع ، وتسارعت تنهـدات الأمهات المضطجعات على أسرة الهم واليأس ، وأراعت أحلام العوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحا مرا وزفيرا متقطعا يملأ الضلوع ندبا ورثاء

***

— قد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين والبيلسان ثم تمازجت بانفاس الارز الطيبة وسرت مع تموجات النسيم فوق الطلول المتشعبة والممرات الملتوية ، فملأت النفس انعطافا ومنحتها حنينا الى الطيران

— قد تصاعدت روائح الازقة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل ، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس وسممت الهواء

***

— ها قد جاء الصباح يا حبيبي وداعبت أصابع اليقظة أجفان النيام وفاضت الأشعة البنفسجية من وراء الجبل وأزالت غشاء الليل عن عزم الحياة ومجدها ، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادي وترنمت أجراس الكنائس وملأت الأثير نداء مستحباً معلنة بدأ صلاة الصباح ، فأرجعت الكهوف صدى رنينها ، كأن الطبيعة بأسرها قامت مصلية ، قد غادرت العجول مرابضها وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها وانثنت نحو الحقول ترتعي رءوس الأعشاب المتلمعة بقطر الندى ومشى أمامها الرعاة ينفخون الشبابات ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافير بقدوم الصباح

— قد جاء الصباح يا حبيبتي وانبسطت فوق المنازل المكردسة أكف النهار الثقيلة ، فأزيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الابواب ، فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة ، وذهب التعساء الى المعامل وداخل أجسادهم يقطن الموت في جوار الحياة ، وعلى ملامحهم

المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف ، كأنهم منقادون
قهراً الى عراك هائل مهلك . ها قد غصت الشوارع
بالمسرعين الطامعين وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوي
الدواليب وعويل البخار وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع
فيها القوي الضعيف ويستأثر الغني المظلوم باتعاب الفقير
المسكين

*
* *

— ما أجمل الحياة ههنا ياحبيبي ، فهي مثل قلب الشاعر
المملوء نوراً ورقة

— ما أقسى الحياة ههنا ياحبيبتي ، فهي مثل قلب المجرم
المفعم بالإثم والمخاوف

ياصاحبي

ياصاحبي — أنا لست كما أظهر لديك ، وما مظاهري
سوى رداء دقيق الصنع محوك من خيوط
التساهل والحسنى ألتف به ليدرأ عني تطفلك
ويحميك من إهمالي . أما الذات الخفية التي
أدعوها « أنا » فهي سر عميق غامض مستتر
وراء جدران السكون وسيبقى غامضاً مستتراً
معتصما الى الأبد

ياصاحبي — أود أن لا تصدق ما أقول وأن لا تثق بما
أفعل لان كلماتي ليست سوى صدى أفكارك
وما آتي ليست سوى رسوم آمالك

ياصاحبي — لما تقول لي « الريح تهب شرقا » أجيبك
بقولي « أي » فهي « تهب شرقا » لانني
لا أريد أن تعلم أن أفكاري لا تسبح مع

الريح بل تهبط وتتصاعد على أمواج البحر
وأنت قاصر بطبيعة أفكارك المتسلمة الى
الأرياح عن ادراك طبيعة أفكارى المرفرفة
فوق البحار ، وأنا لا أستطيع أن أبين لك
كنه تلك الافكار ، ولو استطعت لما فعلت
لانى أوثر أن أسبح فى البحر وحدى
ياصاحبي — لما تكون فى ظهيرة نهارك أكون فى
منتصف ليلى ، ومع ذلك فأنا أحدثك من
وراء حجاب الدجى عن الشمس فى الطفل
وعن أشعتها الذهبية الراقصة فوق قمم الجبال
وعن الظل الظليل الذى يسترق خطواته فى
الاودية الخضراء . أحدثك عن هذه الامور
لانك لاتستطيع أن تسمع ألحان ظلمتى ولا
تقدر أن ترى خفقات جناحىّ بين
الكواكب . وأنا لا أريدك أن تسمع أو
ترى لانى أوثر أن أبقى مع الليل وحدى .

ياصاحبي — لما تصعد أنت الى جنتك أنحدر أنا الى
جحيمي . وحتى فى جحيمي أسمعك تناديني
من وراء الهاوية الهائلة التى تفصلنا قائلا
« ياصاحبي — يارفيق » فأجيبك هاتفا
« يارفيق — ياصاحبي » لأني أضن
بجحيمي من أن يقع عليه بصرك وأخشى من
لهيبه أن يلتهم النور في عينيك ومن دخانه
أن يسد منخريك ، أما أنا فولع بجحيمي
وأوثر أن تبقى بعيداً عنه لانى أريد أن أكون
فى الجحيم وحدى
ياصاحبي — أنت تعشق الحق والجمال والفضيلة . وأنا
لأجلك أقول أنه يليق بالانسان أن يحب
هذه الاشياء . ولكننى أضحك فى قلبي من
حبك — وأستر عنك ضحكى لانى أفضل أن
أضحك وحدى
ياصاحبي — أنت صديق وحكيم ومترو ، لا بل أنت

كامل . وأنا أحاول أن أخاطبك بحكمة وتروٍ ،
غير أني مجنون منجذب عن العالم الذي
تعظمه أنت الى عالم غريب وبعيد ، لكنني
أستر عنك جنوني لأني أفضل أن أكون
مجنوناً وحدي

ياصاحبي — أنت لست صاحبي فكيف أجملك أن تدرك
ذلك ؟ طريقك ليست طريقي ولكننا نسير
معاً يداً بيد

مات أهلي

مات أهلي وأنا على قيد الحياة أندب اهلي في وحدتي
وانفرادي

مات أحبائي . وقد أصبحت حياتي بعدم بعض
مصابي بهم

مات أهلي وأحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات
بلادي وأنا ههنا أعيش مثلما كنت عائشاً عند ما كان أهلي
وأحبائي جالسين على منكبي الحياة وهضبات بلادي مغمورة
بنور الشمس

مات أهلي جائعين ، ومن لم يمت منهم جوعاً قضى بحد
السيف ، وأنا في هذه البلاد القصية أسير بين قوم فرحين
مغبوطين يتناولون المآكل الشهية والمشارب الطيبة
وينامون على الأسرة الناعمة ويضحكون للايام والايام
تضحك لهم

مات أهلى أذل ميتة ، وانا ههنا أعيش فى رغد وسلام، وهذه هى المأساة المستتبة على مسرح نفسى

لو كنت جائعاً بين اهلى الجائعين ، مضطهداً بين قومى المضطهدين لكانت الايام أخف وطأة على صدرى والليالى اقل سواداً أمام عينى . لان من يشارك اهله بالاسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التي يولدها الاستشهاد ، بل يفتخر بنفسه لانه يموت بريئاً مع الأبرياء

ولكنى لست مع قومى الجائعين ، المضطهدين ، السائرين فى موكب الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل انا ههنا وراء البحار السبعة أعيش فى ظل الطمأنينة وخمول السلامة، انا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا استطيع ان افتخر بشئ حتى ولا بدموعي

وماذا عسى يقدر المنفى البعيد ان يفعل لاهله الجائعين

ليت شعري ، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه : لو كنت سنبلة من القمح نابتة فى تربة بلادى لكان الطفل الجائع يلتقطنى ويزيل بحباتى يد الموت عن نفسه

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقضمني طعاماً

لو كنت طائراً في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي ظل القبر عن جسده

ولكن ، واحرّ قلباه ، لست بسنبلة من القمح في سهول سوريا ، ولا بثمرة يانعة في أودية لبنان ، وهذه هي نكبتي ، هذه هي نكبتي الصامتة التي تجعلني حقيراً أمام نفسي وأمام اشباح الليل

هذه هي المأساة الموجعة التي تعقد لساني وتكبل يديّ ثم توقفني بلا عزم ، ولا إرادة ، ولا عمل

* * *

يقولون لي — ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ، وما الدموع والدماء التي أهرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفق ليلا ونهاراً في أودية الارض وسهولها

نعم ، ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء — نكبة

بلادى جريمة حبلت بها رؤوس الافاعى والثعابين — نكبة
بلادى مأساة بغير أناشيد ولا مشاهد

لو ثار قومى على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين
لقلت أن الموت فى سبيل الحرية لأشرف من الحياة فى
ظلال الاستسلام، ومن يعتنق الابدية والسيف فى يده كان
خالداً بخلود الحق

لو اشتركت أمتى بحرب الامم وانقرضت عن بكرة
أبيها فى ساحة القتال لقلت هى العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها
الاغصان الخضراء واليابسة معاً ، وللموت تحت أقدام
العواصف لأشرف منه بين ذراعي الشيخوخة

ولو زلزلت الارض زلزالها وقلبت ظهر بلادى صدراً
وغمر التراب اهلى وأحبائى لقلت هى النواميس الخفية تتحرك
بمشيئة قوة فوق قوى البشر فمن الجهالة أن نحاول ادراك
أسرارها وخفاياها

ولكن لم يمت أهلى متمردين ، ولا هلكوا محاربين،
ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين

مات أهلي على الصليب

ماتوا وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم
محدقة بسواد الفضاء

ماتوا صامتين لان آذان البشرية قد أغلقت دون
صراخهم

ماتوا لانهم لم يحبوا أعداءهم كالجبناء ، ولم يكرهوا
محبيهم كالجاحدين

ماتوا لانهم لم يكونوا مجرمين

ماتوا لانهم لم يظلموا الظالمين

ماتوا لانهم كانوا مسالمين

ماتوا جوعاً فى الارض التى تدر لبناً وعسلا

ماتوا لان الثعبان الجهنمى قد التهم كل ما في حقولهم
من المواشي وما فى اهراثهم من الاقوات

ماتوا لان الافاعى أبناء الافاعى قد تنفسوا السموم فى
الفضاء الذي كانت تملؤه أنفاس الارز وعطور الورود والياسمين

* * *

مات أهلي وأهلكم ، أيها السوريون ، فماذا نستطيع ان نفعل لمن لم يمت منهم ؟

ان نواحنا لا يسد رمقهم ، ودموعنا لا تروي غليلهم

اذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدة ؟ هل نبقى مرتابين ، مترددين ، متكاسلين ، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها ؟

ان العاطفـة التي تحملك ، يا أخي السوري ، أن تعطي شيئاً من حياتك لمن يكاد ان يفقد حياته هي هي الامر الوحيد الذي يجعلك حرياً بنور النهار وهدوء الليل

وان الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة اليك هو هو الحلقة الذهبية التي تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية

أغنية الليل

سكن الليل ، وفى ثوب السكون تختبي الاحلام
وسعي البدر ، وللبدر عيون ترصد الايام

فتعالى ، يا ابنة الحقل ، نزور كرمة العشاق
علنا نطفى بذياك العصير حرقة الأشواق

اسمعى البلبل مابين الحقول يسكب الألحان
فى فضاء نفخت فيه التلول نسمة الريحان

لا تخافى ، يافتاتى ، فالنجوم تكتم الأخبار
وضباب الليل فى تلك الكروم يحجب الأسرار

لا تخافى ، فعروس الجن فى كهفها المسحور
هجعت سكرى وكادت تختفي عن عيون الحور

ومليك الجن ان مرّ يروح والهوى يثنيه
فهو مثلى عاشق كيف يبوح بالذي يضنيه

صفحة من المواكب

والدين في الناس حقلٌ ليس يزرعهُ
غير الأُولى لهمُ في زرعه وطرُ
من آملٍ بنعيم الخلدِ مبتشرٍ
ومن جهول يخافُ النارَ تستعرُ
فالقومُ لولا عقاب البعثِ ما عبدوا
ربّاً ولولا الثواب المرتجى كفروا
كأنما الدينُ ضربٌ من متاجرهمْ
إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا

***

صفحة من المواكب

ليس فى الغابات دينٌ
لا ولا الكفرُ القبيحْ
فإذا البلبلُ غنى
لم يقل هذا الصحيحْ
ان دين الناس يأتى
مثلَ ظلٍّ ويروحْ
لم يقمْ فى الارض دينٌ
بعد طه والمسيح

أعطنى الناى وغنِّ فالغنا خيرُ الصلاة
وانينُ الناى يبقى بعد أن تفنى الحياة

أيتها الارض

ما أجملك أيتها الارض وما أبهاك .
ما أتم امتثالك للنور وأنبل خضوعك للشمس .
ما أظرفك متشحة بالظل وما أملح وجهك مقنعا بالدجى .
ما أعذب أغانى فجرك وما أهول تهاليل مسائك .
ما أكملك أيتها الارض وما أسناك .

لقد سرت فى سهولك ، وصعدت على جبالك ، وهبطت الى اوديتك ، وتسلقت صخورك ، ودخلت كهوفك ، فعرفت حلمك فى السهل ، وأنفتك على الجبل ، وهدوءك فى الوادى ، وعزمك فى الصخر ، وتكتمك فى الكهف ، فانت أنت المنبسطة بقوتها ، المتعالية بتواضعها ، المنخفضة بعلوها ، اللينة بصلابتها ، الواضحة باسرارها ومكنوناتها

لقد ركبت بحارك ، وخضت أنهارك ، وتتبعت جداولك فسمعت الأبدية تتكلم بمدك وجزرك ، والدهور تترنم بين هضابك وحزونك ، والحياة تناجي الحياة في شعبك ومنحدراتك ، فانت انت لسان الابدية وشفاهها ، واوتار الدهور واصابعها ، وفكرة الحياة وبيانها

لقد ايقظني ربيعك وسيرني الى غاباتك حيث تتصاعد انفاسك بخورا ، واجلسني صيفك في حقولك حيث يتجوهر اجهادك اثماراً ، وأوقفني خريفك في كرومك حيث يسيل دمك خمرا ، وقادني شتاؤك الى مضجعك حيث يتناثر طهرك ثلجا ، فانت أنت العطرة بربيعها الجوّادة بصيفها الفياضة بخريفها ، النقية بشتائها

في الليلة الصافية قد فتحت نوافذ نفسي وأبوابها وخرجت اليك مثقلا بمطامعي مكبلا بقيود أنانيتي فالفيتك شاخصة بالكواكب وهي تبتسم لك ، فنزعت عني قيودي وأثقالي وعلمت أن منزل النفس فضاؤك ، ورغائبها في رغائبك ، وسلامتها في سلامتك وسعادتها في الغبار الذهبي

الذى تنثره النجوم على جسدك

فى الليلة المبطنة بالنيوم ، وقد ملت غفلتى وجمودى
خرجت اليك فوجدتك جبارة هائلة مسلحة بالعاصفة ،
تحار بين ماضيك بحاضرك ، وتصرعين قديمك بجديدك ،
وتبعثرين صنئيلك بضليعك ، فعلمت ان نظام البشر نظامك ،
وناموسهم ناموسك ، وسنتهم سنتك ، وان من لا يبصر
بارياحه مايبس من أغصانه يموت مللا ، ومن لا يمزق بثوراته
مابلى من اوراقه يفنى خمولا ، ومن لا يكفن بالنسيان ما
مات من ماضيه كان هو كفننا لما تى الماضى

***

ما أكرمك أيتها الارض وما أطول اناتك
ما أشد حنانك على ابنائك المنصرفين عن حقيقتهم
الى أوهامهم ، الضائعين بين مابلغوا اليه وما قصروا عنه
نحن نضج وأنت تضحكين
نحن نذنب وأنت تكفرين
نحن نجدف وأنت تباركين

نحن ننجس وأنت تقدسين

نحن نهجع ولا نحلم وأنت تحلمين فى سهرك السرمدى

نحن نكلم صدرك بالسيوف والرماح وأنت تغمرين كلومنا بالزيت والبلسم

نحن نزرع راحاتك العظام والجماجم وأنت تستنبتينها حورا وصفصافا

نحن نستودعك الجيف وأنت تملأين بيادرنا بالاغمار ومعاصرنا بالعناقيد

نحن نصبغ وجهك بالدم وأنت تغسلين وجوهنا بالكوثر

نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقنابل
وأنت تتناولين عناصرنا وتكونين منها الورود والزنابق

ما أوسع صبرك أيتها الارض وما أكثر انعطافك
ما أنت أيتها الارض ومن أنت ؟

اذرة من الغبار تصاعدت من بين قدمى الله عند ما

سار من مشارق الاكوان الى مناربها ، أم شرارة قذفت من موقد اللا نهاية

انواة طرحت فى حقل الاثير لتشق قشرتهابعزمالبابها وتتمالى نصبة ربانية الى مافوق الاثير ؟

أقطرة من الدم فى عروق جبار الجبابرة ، ام انت قطرة من العرق على جبينه ؟

اثمرة تلوحها الشمس يبطء ؟ اثمرة انت فى شجرة المعرفة الكلية التى تمد عروقها الى أعماق الازل وترفع غصونها الى اعماق الابد ، أم جوهرة انت وضعها آلهالزمن فى حفنة إلاهة المسافة ؟

اطفلة انت فى حضن الفضاء ، أم عجوز ترقب الايام والليالى وقد شبعت من حكمة الليالى والايام ؟

ما أنت أيتها الارض ومن أنت ؟

انت أنا أيتها الارض ! انت بصرى وبصيرتى ، انت عاقلتى وخيالى وأحلامى ، انت جوعى وعطشى ، انت المي

ومسروري ، انت غفلتي وانتباهي

انت الجمال في عينيّ — ، والشوق في قلبي ، والخلود

في روحي

انت أنا أيتها الارض فلو لم اكن لما كنت

السم في الدسم

في صباح يوم من أيام الخريف الذهبية التي تظهر شمال لبنان بكل مظاهره العلوية اجتمع سكان قرية تولا حول الكنيسة القائمة في وسط منازلهم يتساءلون ويتبادلون الآراء في سفر فارس الرحال الفجائي الى مكان قصي لا يعلم به غير الله تاركا عروسته الصبية التي تزوج بها منذ ستة أشهر

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها ، وقد ورث هذه المنزلة عن أبيه وجده . ومع أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان في شخصيته ما يوعز الاحترام والوقار في قلوب مواطنيه . وعند ما اقترن في أواسط الربيع الغابر بسوسان بركات قال الناس — ما أسعده فتى ! فهو قد حصل

قبل أن يبلغ الثلاثين على كل ما يتمناه الانسان من السعادة في الحياة الدنيا .

ولكن في ذلك الصباح عندما استيقظ سكان تولا وقيل لهم أن الشيخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون أن يودع نسيباً أو صديقاً تماظمت ظنونهم وأخذوا يتساءلون عن الاسباب الخفية التي جعلته أن يتركهم ويترك عروسته ومنزله وحقوله وكرومه

إن الحياة في شمالي لبنان أقرب الى الاشتراكية منها الى كل تعليم آخر ، فالقوم هناك يتساهمون أفراح الوجود وشدائده مدفوعين بأميال فطرية وضعية . فاذا ما جاءت الأيام بحادث الى قرية ينصرف سكانها بكليتهم الى استقصاء ذلك الحادث حتى تجيء الأيام اليهم بأمر آخر

تلك هي العوامل التي صرفت سكان تولا عن أعمالهم اليومية فاجتمعوا حول كنيسة مارتولا يتحدثون ويتساءلون ويتبادلون الآراء بسفر فارس الرحال .

وبينما هم على هذه الحالة واذا بالخوري اسطفان كاهن

القرية يقترب منهم منحنى الرأس منقبض الملامح . فدنوا منه مستطلعين فظل ساكتاً يفرك يداً بيد وبعدهنيهة قال

ـ لاتسألونى لاتسألونى . كل ما أعرفه يا أبنائى هو هذا . قرع فارس باب منزلى قبل طلوع الفجر ولما فتحت له وجدته متمسكا بمقود فرسه وعلى وجهه أمارات الحزن الشديد فسألته مستغربا عما يريد فقال « جئت لأودعك ياأبى ، فأنا مسافر الى ما وراء البحار ولن أعود الى هـذه البلاد وأنا حي » ثم وضع فى يدي رسالة مختومة باسم صديقه نجيب مالك وطلب الىّ أن أسلمها اليه يداً بيد . فعلى هذا واعتلى فرسه وراح مسرعا قبل أن استوضح أمره . هذا كل ما أعرفه . فلا تسألونى الزيادة .

فقال أحد الواقفين

ـ لاشك أن فى الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره لأن نجيب مالك كان أعز صديق له في القرية

وقال آخر

وهل رأيت عروسته يا أبتاه ؟

فأجاب الكاهن

— قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدتها جالسة بقرب النافذة تنظر الى البعيد بعينين زجاجيتين كأنها فقدت ادراكها ولما سألتها هزت رأسها وقالت « لاأدري . لا أدري . » ثم طفقت تبكي وتنتحب كالأطفال .

ولم ينته الكاهن من كلامه الا وذعر القوم حوله لطلق بندقية من الوجهة الشرقية من القرية . ثم تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء . فبهت القرويون دقيقة ثم تراكضوا نساء ورجالا وعلى وجه كل واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم . ولما بلغوا البستان الذي يحيط بمنزل فارس الرحال شاهدوا هنالك منظراً أجمد الدم في عروقهم والفكرة في رؤوسهم — رأوا نجيب مالك منطرحاً على التراب والنجيع يتدفق من أمعائه . وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرحال تنبش شعرها وتمزق أثوابها وتصرخ متوجعة — « قد قتل نفسه . قد أطلق البندقية في صدره . »

فبهت القوم كان أكف القضاء غير المنظورة قد قبضت

على أرواحهم . ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد فى يمينه الرسالة التى كان قد سلمه أياها فى ذلك الصباح وقد قبض عليها بشدة كأنه يريد أن يجعلها جزءاً من أصابعه فتناولها الكاهن ووضعها فى جيبه دون أن يراه أحد ثم تراجع الى الوراء لاطما وجهه .

وحمل القوم جثة المنتحر الى بيت والدته المسكينة التى لم تر جثة وحيدها حتى فقدت عقلها .

واهتم بعض النساء بزوجة فارس الرحال فاقتادوها الى منزلها بين حية وميتة .

*

ولما بلغ الخورى اسطفان منزله أوصد الباب ووضع النظارات على عينيه منتشلا الرسالة التى وجدها فى يد نجيب مالك وبصوت مرتعش أخذ يقرأ —

« أخى نجيب

أنا تارك هذه القرية لان وجودي فيها يجلب التعاسة

لك ولزوجتي ولى أيضا . أنا أعلم بانك شريف النفس تترفع
عن خيانة صديقك وجارك ، واعلم أن زوجتي سوسان
طاهرة الذيل ولكنني أعلم في الوقت نفسه أن الحب الذي
يضم قلبك وقلبها هو أمر فوق ارادتكما . فأنت لا تستطيع
ازالته كما أنك لا تقدر أن توقف مجارى نهر قاديشا . لقد كنت
صديقاً لى يانجيب مذ كنا صبيين نلعب في الحقول وفي ساحة
الكنيسة . وأنت لم تزل صديقي أمام الله وأرجوك أن تفتكر بي
في المستقبل مثلما كنت تفتكر بي في الماضي ، واذا التقيت
بسوسان غداً أو بعده فقل لها انى احبها وارحمها ، وقل لها أيضا
انى كنت أذوب شفقة عندما كنت استيقظ في سكينة الليل
وأراها راكعة أمام صورة يسوع تبكى وتنتحب وتجلد صدرها ،
ليس أصعب من حياة المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل
يحبها ورجل تحبه وسوسان المسكينة كانت في حرب دائم ،
كانت تريد أن تقوم بواجباتها الزوجية ولكنها لم تكن
قادرة على قتل عواطفها ، أما أنا فسافر الى مكان بعيد ولن
أعود الى هذه الديار لانى لا أريد أن أكون حجر عثرة في

سبيل سعادتكما ، وفى الختام أرجوك ياأخى أن تبقى مخلصا لسوسان وأن تحافظ عليها حتى النهاية لانها قد ضحت كل شيء من أجلك ، فهي تستحق كل ما يستطيع الرجل أن يقدم للمرأة ، ابق يانجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس والله يحفظك لاخيك

فارس الرحال

ولما انتهى الخورى اسطفان من قراءة الرسالة طواها وأعادها الى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر الى الوادى البعيد وعلى وجهه المتجعد امارات التفكر العميق

ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة على قدميه كأنه وجد بين ثنايا افكاره سرا دقيقاً هائلا محجوبا بالظواهر ملتفا بالسطحيات ، فهتف صارخا — ما أكثر دهاءك يافارس الرحال ، فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئا من دمه ، قد بعثت اليه بالسم ممزوجا بالعسل ، قد بعثت اليه بالسيف ملتفا بالحرير ، قد بعثت اليه الموت طى الرسالة ، فعند ماصوب بندقيته الى صدره كانت يدك قابضة

على يده وارادتك محيطة بارادته ... أواه ما أكثر دهاءك يافارس الرحال ...

وعاد الخورى بولس فجلس على المقعد هازا رأسه ممشطا لحيته باصابعه مبتسما ابتسامات ذات معان أشدهولا من المأساة وبعد هنيهة تناول كتابا من خزانة قريبة وأخذ يتلو بعض موشحات القديس افرام السريانى وهو يرفع عينيه بين الآونة والاخرى ليسمع صراخ النساء آتيا من قلب القرية

المخدرات والمباضع

« هو متطرف بعبادته حتى الجنون »

« هو خيالى يكتب ليفسد أخلاق الناشئة »

« لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج لتقوضت أركان العائلة وانهدمت مبانى الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيما وسكانه شياطين »

« فهرا عما لأسلوبه الكتابى من الجمال فهو من أعداء الانسانية »

« هو فوضوى كافر ملحد ونحن ننصح لسكان هـذا الجبل المبارك بأن ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شئ على نفوسهم »

« قد قرأنا له الأجنحة المتكسرة فوجدناها السم في الدسم »

*
* *

هـذا بعض ما يقوله الناس عنى وهم مصيبون . فأنا

متطرف حتى الجنون ، أميل الى الهدم ميلي الى البناء ،وفي قلبي كره لما يقدسه الناس وحب لما يأبونه ، ولو كان بامكانى استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة أما قول بعضهم أن كتاباتى سم فى دسم فكلام يبين الحقيقة من وراء نقاب كثيف ـ فالحقيقة العارية هى أننى لا أمزج « السم » بالدسم بل أسكبه صرفا . . غير أننى أسكبه فى كؤوس نظيفة شفافة

أما الذين يعتذرون عنى أمام نفوسهم قائلين « هو خيالى يسبح مرفرفا بين الغيوم » فهم الذين يحدقون بلمعان تلك الكؤوس الشفافة منصرفين عما فى داخلها من الشراب الذى يدعونه « سما » لان معدهم الضعيفة لا تهضمه

قد تدل هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة ، ولكن أليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانة بنعومتها ؟ ان الوقاحة تظهر نفسها بنفسها أما الخيانة فترتدي بملابس فصلت لغيرها

٭٭٭

يطلب الشرقيون من الكاتب أن يكون كالنحلة التي تطوف مرفرفة في الحقول جامعة حلاوة الأزهار لتصنع منها أقراصاً من العسل

أن الشرقيين يحبون العسل ولا يستطيبون سواه ما كلا وقد أفرطوا بالتهامه حتى تحولت نفوسهم الى عسل تسيل أمام النار ولا تتجمد الا اذا وضعت على الثلج

ويطلب الشرقيون من الشاعر أن يحرق نفسه بخوراً أمام سلاطينهم وحكامهم وبطاركتهم . وقد تلبد فضاء الشرق بغيوم البخور المتصاعدة من جوانب العروش والمذابح والمقابر ولكنهم لا يكتفون . ففي أيامنا هذه مداحون يضارعون المتنبي ، وراثون يضاهون الخنساء ، ومهنئون أكثر طلاوة من صفي الدين الحلي

ويطلب الشرقيون من العالم أن يبحث في تاريخ آبائهم وجدودهم ، متعمقاً بدرس آثارهم وعوائدهم وتقاليدهم صارفا أيامه ولياليه بين مطولات لغاتهم واشتقاقات ألفاظهم ومباني معانيهم وبيانهم وبديعهم

ويطلب الشرقيون من المفكر أن يعيد على مسامعهم ماقاله يدبا وابن رشد وافرام السرياني ويوحنا الدمشقي وأن لا يتعدى بكتاباته حدود الوعظ البليد والارشاد السقيم وما يجيء بينهما من الحكم والآيات التي اذا ما تمشى عليها الفرد كانت حياته كالاعشاب الضئيلة التي تنبت في الظل وتمسه كالماء الفاتر الممزوج بقليل من الافيون

وبالاختصار فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي الغابر ويميلون الى الامور السلبية المسلية المفكهة ويكرهون المبادئ والتعاليم الايجابية المجردة التي تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالاحلام الهادئة

*
* *

انما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم وألف الألم وأصبح ينظر الى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة فمن كان خالياً منها عد ناقصاً محروماً من المواهب والكمالات العلوية

وأطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه ويتآمرون في شأنه ولكنهم لا يداوونه بغير المخدرات الوقتية التي تطيل زمن العلة ولا تبرئها

أما تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الانواع متعددة الاشكال متباينة الالوان . وقد تولد بعضها من بعض مثلما تناسخت الأمراض والعاهات بعضها عن بعض. وكلما ظهر في الشرق مرض جديد يكتشف له أطباء الشرق مخدراً جديداً .

وأما الاسباب التي آلت الى وجود المخدرات فعديدة أهمها استسلام العليل الى فلسفة القضاء والقدر المشهورة ، وجبانة الأطباء وخوفهم من تهييج الألم الذي تحدثه الادوية الناجعة .

واليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التي يتخذها الأطباء الشرقيون لمعالجة الأمراض العائلية والوطنية والدينية .

ينفر الرجل من زوجته والمرأة من بعلها لأسباب

ومنية حيوية فيتخاصمان ويتضاربان ويتباعدان ولكن لايمر يوم وليلة حتى يجتمع أهل الرجل بأهل زوجته فيتبادلوا الآراء المزخرفة والأفكار المرصعة ثم يتفقوا على ايجاد السلام بين الزوجين فيأتون بالمرأة ويستهوون عواطفها بالمواعظ الملفقة التي تخجلها ولا تقنعها ثم يستدعون الرجل ويغمرون رأسه بالأقوال والأمثال المزركشة التي تلين أفكاره ولا تغيرها . وهكذا يتم الصلح — الصلح الوقتي — بين الزوجين المتنافرين بالروح فيعودا قهرا عن ارادتهما الى السكنى تحت سقف واحد حتى « يبوخ » الطلاء ويزول تأثير المخدر الذي استخدمه الأهل والانسباء فيعود الرجل الى اظهار نفوره ومقته والمرأة الى ازالة النقاب عن تعاستها . غير ان الذين أوجدوا الصلح في المرة الأولى يوجدونه ثانية ومن يرتشف جرعة من المخدرات لا يأبى شرب كأس دهاق

يتمرد قوم على حكومة جائرة أو على نظام قديم فيؤلفون « جمعية اصلاحية » ترمي الى النهوض والانعتاق فيخطبون بشجاعة ويكتبون بحماسة وينشرون « اللوائح

والبرامج » ويبعثون « الوفود والممثلين » ولكن لايمر شهر أو شهران حتى نسمع بان الحكومة قد سجنت رئيس الجمعية أو عهدت اليه بوظيفة أما الجمعية « الاصلاحية » فلا نعود نسمع عنها شيئاً لان أفرادها قد تجرعوا قليلا من المخدرات المعهودة وعادوا الى السكينة والاستسلام

تمرد طائفة على رئيس دينها لأمور أولية فتنتقد شخصه وتنكر أعماله وتتبرم من مآتيه ثم تهدده باعتناقها مذهباً آخر أقرب الى العقل وأبعد عن الأوهام والخرافات ولكن لايمر ردح من الزمن حتى نسمع بان عقلاء البلاد قد أزالوا الخلاف بين الراعي ورعيته وارجعوا بفضل المخدرات السحرية الهبية الى شخص الرئيس والطاعة العمياء الى نفوس المرؤوسين المتمرفين :

يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوى فيقول له جاره « اسكت فالعين التى تعاند السهم تفقر »

يشك القروى بتقى الرهبان واخلاصهم فيقول له

زميله « اصمت فقد جاء فى الكتاب اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم »

يعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيين اللغوية فيقول له استاذه « ان الكسالى المتوانين يختلقون لنفوسهم أعذار أقبح من الذنوب »

تمتنع الصبية عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها « ليست الابنة أفضل من أمها فالطريق التي سلكتها تسلكينها أنت أيضاً »

يسأل الشاب مستفسرا معانى الزوائد الدينية فيقول له الكاهن « من لاينظر بعين الايمان لايرى فى هذا العالم سوى الضباب والدخان »

وهكذا تمر الأيام أثر الليالى والشرقي مضطجع على فراشه الناعم . يستيقظ دقيقة عند ما تلسعه البراغيث ثم يعود ويهجع جيلا بحكم المخدرات التى تمازج دمه وتسير فى عروقه فاذا ماقام رجل وصرخ بالنائمين وملأ منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج يفتحون أجفانهم المطبقة

بالتماس الأبدى ثم يقولون متتالين « ماأخشنه فتى لاينام ولا يدع الناس أن يناموا » ثم يغمضون عيونهم ويهمسون فى آذان أرواحهم « هو كافر ملحد يفسد أخلاق الناشئة ويهدم مبانى الأجيال ويرشق الأنسانية بالسهام السامة »

* * *

قد سألت نفسى مرات ما اذا كنت من المستيقظين المتمردين الذين يأبون شرب المخدرات والمسكنات . فكانت نفسى تجيبنى بكلمات مبهمة ملتبسة . ولكننى لما سمعت الناس يجدفون على اسمى ويتأففون من مبادئى أيقنت بحقيقة يقظتى وعلمت أنى لست من المستسلمين الى الأحلام اللذيذة والخيالات المستحبة بل من أولئك المستوحدين الذين تسيرهم الحياة على سبل ضيقة مفروسة بالأشواك والازهار محفوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترغة

ولو كانت اليقظة فضيلة لمنعنى الاحتشام من ادعائها ولكنها ليست بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للأفراد المستوحدين وتسير امامهم فيتبعونها قسر

إرادتهم مجذوبين باسلا كها الخفية مصدقين بمعانيها المهيبة

وعندى أن الاحتشام فى اظهار الحقائق الشخصية هو نوع من الرياء الأبيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب

* * *

غداً يقرأ « الأدباء المفكرون » ما تقـدم فيقولون متضجرين « هو متطرف ينظر الى الحياة من الوجهة المظلمة فلا يرى غـير الظلام وقد طالما وقف فينا نادبا نائحاً باكيا علينا متأوهاً لحالتنا »

فلهؤلاء الأدباء المفكرين أقول — أنا أندب الشرق لأن الرقص امام نعش الميت جنون مطبق

أنا أبكى على الشرقيين لأن الضحك على الأمراض جهل مركب

أنا أنوح على تلك البـلاد المحبوبة لأن الغناء امام المصيبة العمياء غباوة عمياء

أنا متطرف لأن من يعتدل باظهار الحق يبين نصف

الحق ويبق نصفه الآخر محجوباً وراء خوفه من ظنون الناس وتقولاتهم

أنا أرى الجيفة النتنة فتشمئز نفسي وتضطرب أحشائي ولا أستطيع أن أجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى

فان كان هناك من يريد أن يبدل نوحي بالضحك ويحول اشمئزازي الى الانعطاف وتطرفي الى الاعتدال فعليه أن يريني بين الشرقيين حاكماً عادلا ومشترعاً مستقيماً ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجاً ينظر الى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه

ان كان هناك من يريد أن يشاهدني راقصاً ويسمعني مطبلا ومزمراً فعليه أن يدعوني الى بيت العرس لا أن يوقفني بين المقابر .

مستقبل اللغة العربية [1]

والعالم العربي

(١) ما هو مستقبل اللغة العربية ؟

انما اللغة مظهر من مظاهر قوة الابتكار في مجموع الأمة ، أو ذاتها العامة ، فاذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها ، وفي الوقوف التقهقر ، وفي التقهقر الموت والاندثار

اذاً فمستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن — أو غير الكائن — في مجموع الأمم التي تتكلم اللغة العربية ، فان كان ذلك الفكر موجوداً كان مستقبل اللغة عظيماً كماضيها وان كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتيها السريانية والعبرانية

---

(١) كانت مجلة الهلال الغراء وجهت هذه الاسئلة لرجال الدين يعول على آرائهم ونحن ننقل رد نابغتنا شاكرين للهلال تفننه في خدمة الأدب العربي

وما هذه القوة التي ندعوها بقوة الابتكار ؟

هي في الأمة عزم دافع الى الامام ، هي في قلبها جوع وعطش وشوق الى غير المعروف ، وهي في روحها سلسلة أحلام تسعى الى تحقيقها ليلا نهاراً ولكنها لا تحقق حلقة من أحد طرفيها الا أضافت الحياة حلقة جديدة في الطرف الآخر ، هي في الأفراد النبوغ وفي الجماعة الحماسة ، وما النبوغ في الأفراد سوى المقدرة على وضع ميول الجماعة الخفية في أشكال ظاهرة محسوسة . ففي الجاهلية كان الشاعر يتأهب لأن العرب كانوا في حالة التأهب ، وكان ينمو ويتمدد أيام المخضرمين لأن العرب كانوا في حالة النمو والتمدد ، وكان يتشعب أيام المولدين لأن الأمة الاسلامية كانت في حالة التشعب ، وظل الشاعر يتدرج ويتصاعد ويتلون فيظهر آنا كفيلسوف ، وآونة كطبيب ، وأخرى كفلكي حتى راود النعاس قوة الابتكار في الأمم العربية فنامت وبنومها تحول الشعراء الى ناظمين والفلاسفة الى كلاميين والأطباء الى دجالين والفلكيون الى منجمين

اذا صح ما تقدم كان مستقبل اللغة العربية رهن قوة الابتكار فى مجموع الأمم التى تتكلمها ، فان كان لتلك الأمم ذات خاصة (أو وحدة معنوية) وكانت قوة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربية عظيما كماضيها — والا فلا

***

(٢) وما عسى أن يكون تأثير التمدين الأورپى والروح الغربية فيها ؟

إنما (التأثير) شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها فتمضغه وتبتلعه وتحول الصالح منه الى كيانها الحى كما تحول الشجرة النور والهواء وعناصر التراب الى أفنان فأوراق فأزهار فأثمار ، ولكن اذا كانت اللغة بدون أضراس تقضم ولا معدة تهضم فالطعام يذهب سدى بل ينقلب سما قاتلا : وكم من شجرة تحتال على الحياة وهى في الظل فاذا ما نقلت الى نور الشمس ذبلت وماتت ، وقد جاء « من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه »

وأما الروح الغريبة فهي دور من أدوار الانسان وفصل من فصول حياته ، وحياة الانسان موكب هائل يسير دائماً الى الامام ، ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكوّن اللغات والحكومات والمذاهب : فالأمم التي تسير في مقدمة هذا الموكب هي المبتكرة ، والمبتكر مؤثر ، والأمم التي تمشي في مؤخرته هي المقلدة ، والمقلد يتأثر ، فلما كان الشرقيون سابقين والغربيون لاحقين كان لمدنيتنا التأثير العظيم على لغاتهم ، وها قد أصبحوا هم السابقين وأمسينا نحن اللاحقين فصارت مدنيتهم بحكم الطبع ذات تأثير عظيم على لغتنا وأفكارنا وأخلاقنا

بيد ان الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه الى كيانهم الغربي ، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحول الى كيانهم الشرقي بل يحولهم الى شبه غربيين ، وهي حالة أخشاها وأتبرم منها لأنها تبين لي الشرق تارة كعجوز فقد أضراسه وطوراً كطفل بدون أضراس !

ان روح الغرب صديق وعدولنا . صديق اذا تمكنا منه وعدو اذا تمكن منا . صديق اذا فتحنا له قلوبنا وعدو اذا وهبناه قلوبنا . صديق اذا أخذنا منه مايوافقنا وعدو اذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه

***

(٣) وما يكون تأثير التطور السياسى الحاضر فى الأقطار العربية ؟

قد أجمع الكتاب والمفكرون فى الغرب والشرق على أن الاقطار العربيه فى حالة التشويش السياسى والادارى والنفسي :ولقد اتفق أكثرهم على أن التشويش مجلبة الخراب والاضمحلال

أما أنا فاسأل — هل هو تشويش أم ملل ؟

ان كان مللا فالملل نهاية كل أمة وخاتمة كل شعب — الملل هو الاحتضار فى صورة النعاس والموت فى شكل النوم

وان كان بالحقيقة تشويشا فالتشويش في عرفى ينفع

دائماً لانه يبين ما كان خافيا فى روح الامة ويبدل نشوتها بالصحو وغيبوبتها باليقظة ونظير عاصفة تهز بعزمها الاشجار لا لتقتلعها بل لتكسر أغصانها اليابسة وتبعثر أوراقها الصفراء واذا ما ظهر التشويش فى أمة لم تزل على شىء من الفطرة فهو أوضح دليل على وجود قوة الابتكار فى أفرادها والاستعداد فى مجموعها . انما السديم أول كلمة فى كتاب الحياة وليس بآخر كلمة منها . وما السديم سوى حياة مشوشة

اذاً فتأثير التطور السياسى سيحول ما فى الأقطار العربية من التشويش الى نظام . ومافى داخلها من الغموض والاشكال الى ترتيب وألفة . ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة : ان الخزاف يستطيع أن يصنع من الطين جرة للخمر أو للخل ولكنه لا يقدر أن يصنع شيئاً من الرمل والحصى

*
* *

(٤) هل يتم انتشار اللغة العربية فى المدارس العالية وغير العالية وتعلم بها جميع العلوم ؟

لا يتم انتشار اللغة العربية فى المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة ، ولن تعلم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من أيدى الجمعيات الخيرية واللجان الطائفية والبعثات الدينية الى أيدى الحكومات المحلية

ففى سوريا مثلا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لاننا جياع متضورون ، ولقد أحيانا ذلك الخبز ، ولما أحيانا أماتنا . أحيانا لانه أيقظ بعض مداركنا ونبه عقولنا قليلا ، وأماتنا لانه فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشد فى حبل احدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها . فالشاب الذى تناول لقمة من العلم

فى مدرسة أميركية قد تحول بالطبع الى معتمد أميركي ، والشاب الذى تجرع رشفة من العلم فى مدرسة يسوعية صار سفيراً لفرنسيا ، والشاب الذى لبس قيصامن نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا .. الى آخر ما هنالك من المدارس وما تخرجه فى كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء . وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع فى الوقت الحاضر فى مستقبل سوريا السياسى . فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانكليزية يريدون أميركا وانكلترا وصية على بلادهم ، والذين درسوها باللغة الافرنسية يطلبون فرنسا أن تتولى أمرهم ، والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك بل يتبعون سياسة أدنى وأقرب الى معارفهم وأقرب الى مداركهم

وقد يكون ميلنا السياسي الى الأمة التى تتعلم على نفقتها دليلا على عاطفة عرفان الجميل فى نفوس الشرقيين ؛ ولكن ما هذه العاطفة التى تبنى حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ؟ ما هذه العاطفة التى تستنبت

زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هـذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً ؟

ان المحسنين الحقيقيين وأصحاب الأريحية لم يضعوا الشوك والحسك في الخبز الذي بعثوا به الينا ، فهم بالطبع قد حاولوا نفعنا لا الضرر بنا . ولـكن كيف تولد ذلك الشوك ومن أين أتى ذلك الحسك ؟ هذا بحث آخر أتركه الى فرصة أخرى

نعم سوف يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العاليه وغير العالية وتعلم بها جميع العلوم فتتوحد ميولنا السياسية وتتبلور منازعنا القوميه لان في المدرسة تتوحد الميول وفي المدرسـة تتجوهر المنازع ، ولـكن لايتم هذا حتى يصير الواحد منا ابناً لوطن واحد بدلا من وطنين متناقضين أحدهما لجسده والآخر لروحه . لايتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا ، لان المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الاريحي ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب ، فالموهب مسير دائماً والواهب مخير أبداً

⁂

(٥) وهل تتغلب « اللغة العربية الفصحى » على اللهجات العامية المختلفة وتوحدها؟

ان اللهجات العامية تتطور وتتهذب وبذلك الخشن فيها قليلين ولكنها لا ولن تغلب — ويجب ألا تغلب — لانها مصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام ومنبت ما نعده بليغاً من البيان

أن اللغات تتبع مثل كل شيء آخر سنة بقاء الانسب، وفي اللهجات العامية الشيء الكثير من الأنسب الذي سيبقى لانه أقرب الى فكرة الأمة وأدنى الى مرامى ذاتها العامة: قلت أنه سيبقى وأعني بذلك أنه سيلتحم بجسم اللغة ويصير جزأ من مجموعها

لكل لغة من لغات الغرب لهجات عامية ، ولتلك اللهجات مظاهر أدبية وفنية لا تخلو من الجميل المرغوب والجديد المبتكر ، بل في أوربا وأميركا طائفة من الشعراء الموهوبين الذين تمكنوا من التوفيق بين العامى والفصيح

فى قصائدهم وموشحاتهم لجاءت بليغة ومؤثرة : وعندى أن فى الموالى والزجل و « العتابا » و « المعنى » من الكنايات المستجدة والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة ، والتى تملأ جرائدنا ومجلاتنا ، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب ، أو كسرب من الصبايا الراقصات المترنمات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة

لقد كانت اللغة الايطالية الحديثة لهجة عامية فى القرون المتوسطة ، وكان الخاصة يدعونها بلغة « الهمج » ولكن لما نظم بها دانتى وبترارك وكامونس وفرنسيس داسيزى قصائدهم وموشحاتهم الخالدة أصبحت تلك اللهجة لغة ايطاليا الفصحى وصارت اللاتينية بعد ذلك هيكلا يسير ولكن فى نعش على أكتاف الرجعيين . . وليست اللهجات العامية فى مصر وسوريا والعراق أبعد عن لغة المعرى والمتنبى من لهجة « الهمج » الايطالية من لغة أوفيدى وفرجيل · فاذا ما ظهر فى الشرق الأدنى عظيم ووضع كتابا عظيما فى احدى

تلك اللهجات تحولت هذه الى لغة فصحى . بيد أنى أستبعد حدوث ذلك فى الاقطار العربية لأن الشرقيين أشد ميلا الى الماضى منهم الى الحاضر أو المستقبل . فهم انصرفوا عن معرفة منهم أو على غير معرفة ، فمن فم كبير بينهم لزم فى اظهار مواهبه السبل البيانية التى سار عليها الأقدمون . وما سبل الأقدمين سوى أقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده

*

(٦) وما هى خير الوسائل لاحياء اللغة العربية ؟

ان خير الوسائل ، بل الوسيلة الوحيدة لاحياء اللغة هى فى قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين أصابعه ؛ فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر ، وهو السلك الذى ينقل ما يحدثه عالم النفس الى عالم البحث ، وما يقرره عالم الفكر الى عالم الحفظ والتدوين

الشاعر أبو اللغة وأمها ، تسير حيثما يسير وتربض أينما يربض ، واذا ماقضى جلست على قبره باكية منتحبة حتى

يمر بها شاعر آخر ويأخذ بيدها

واذا كان الشاعر أبو اللغة وأمها فالمقلد ناسج كفنها وحفار قبرها

أعنى بالشاعر كل مخترع كبيراً كان أو صغيراً ، وكل مكتشف قويا كان أو ضعيفاً ، وكل مختلق عظيما كان أو حقيرا ، وكل محب للحياة المجردة أماماً كان أو صعلوكا ،وكل من يقف متهيباً أمام الأيام والليالى فيلسوفاً كان أو ناطوراً للكروم

أما المقلد فهو الذى لا يكتشف شيئاً ولا يختلق أمراً بل يستمد حياته النفسية من معاصريه ويصنع أثوابه المعنوية من رقع يجزها من أثواب من تقدمه

أعنى بالشاعر ذلك الزارع الذى يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلا عن المحراث الذى ورثه عن أبيه فيجىء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد ، وذلك البستانى الذى يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون فيأتى بعده من يدعو الزهرة الجديدة

باسم جديد ، وذلك الحائك الذي ينسج على نوله نسيجاً ذا رسوم وخطوط تختلف عن الأقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون فيقوم بعده من يدعو نسيجه هذا باسم جديد .

أعني بالشاعر الملاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعاً ثالثاً ، والبناء الذي يبني بيتاً ذا بابين ونافذتين بين بيوت كلها ذات باب واحد ونافذة واحدة ، والصباغ الذي يمزج الألوان التي لم يمزجها أحد قبله فيستخرج لوناً جديداً . فيأتي بعد الملاح والبناء والصباغ من يدعو ثمار أعمالهم بأسماء جديدة فيضيف بذلك شراعاً الى سفينة اللغة ونافذة الى بيت اللغة ولوناً الى ثوب اللغة

أما المقلد فهو ذاك الذي يسير من مكان الى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة ولا يحيد عنها مخافة أن يتيه ويضيع ، ذاك الذي يتبع بمعيشته وكسب رزقه ومأكله ومشربه وملبسه تلك السبل المطروقة التي مشى عليها ألف جيل وجيل فتظل حياته كرجع الصدى ويبقى كيانه كظل ضئيل لحقيقة قصية لا يعرف عنها شيئاً ولا يريد أن يعرف

أعني بالشاعر ذلك المتعبد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكياً فرحاً نادباً مهللاً مصغياً مناجياً ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه أسماء وأفعال وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدد في كل يوم وأنواع انجذابه التي تتغير في كل ليلة فيضيف بعمله هذا وتراً فضياً الى قيثارة اللغة وعوداً طيباً الى موقدها

أما المقلد فهو الذي يردد صلاة المصلين وابتهال المبتهلين بدون ارادة ولا عاطفة فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية

أعني بالشاعر ذلك الذي ان أحب امرأة انفردت روحه وتنحت عن سبل البشر لتلبس أحلامها أجساداً من بهجة النهار وهول الليل وولولة العواصف وسكينة الأودية ثم عادت لتضفر من اختباراتها اكليلاً لرأس اللغة وتصوغ من اقتناعها قلادة لعنق اللغة

أما المقلد فمقلد حتى في حبه وغزله وتشبيبه فان ذكر وجه حبيبته وعنقها قال « بدر وغزال » وان خطر على باله

شعرها وقدها ولحظها قال « ليل وغصن بان وسهام » وان شكى قال « جفن ساهر وفجر بعيد وعذول قريب » وان شاء أن يأتي بمعجزة بيانية قال « حبيبتي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود وتعض على عناب أناملها ببرد أسنانها » يترنم صاحبنا الببغاء بهذه الأغنية العتيقة وهو لا يدري انه يسمم بيلادته دسم اللغة ويمتهن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالتها .

قد تكلمت عن المستنبط ونفعه والمقيم وضرره ولم أذكر أولئك الذين يصرفون حياتهم بوضع القواميس وتأليف المطولات وتشكيل المجامع اللغوية — لم أقل كلمة عن هؤلاء لاعتقادي بأنهم كالشاطئ بين مد اللغة وجزرها وان وظيفتهم لا تتعدى حد الغربلة — والغربلة وظيفة حسنة ولكن ما عسى يغربل المغربلون اذا كانت قوة الابتكار في الأمة لا تزرع غير الزوان ولا تحصد الا الهشيم ولا تجمع على بيادرها سوى الشوك والقطرب ؟

أقول ثانية ان حياة اللغة وتوحيدها وتعميمها وكل ما له

علاقة بها قد كان وسيكون رهن خيال الشاعر فهل عندنا شعراء ؟

نعم عندنا شعراء ، وكل شرقي يستطيع أن يكون شاعراً في حقله وفي بستانه وامام نوله وفي معبده وفوق منبره وبجانب مكتبته . كل شرقي يستطيع أن يعتق نفسه من سجن التقليد والتقاليد ويخرج الى نور الشمس فيسير في موكب الحياة . كل شرقي يستطيع أن يستسلم الى قوة الابتكار المختبئة في روحه — تلك القوة الأزلية الأبدية التي تقيم من الحجارة أبناء لله

أما أولئك المنصرفون الى نظم مواهبهم ونثرها فلهم أقول : ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانعاً عن اقتفاء أثر المتقدمين خير لكم وللغة العربية أن تبنوا كوخاً حقيراً من ذاتكم الوضعية من أن تقيموا صرحاً شاهقاً من ذاتكم المقتبسة . ليكن لكم من عزة نفوسكم زاجراً عن نظم قصائد المديح والرثاء والتهنئة خير لكم وللغة العربية أن تموتوا مهملين محتقرين من أن تحرقوا قلوبكم بخوراً

أمام الانصاب والأصنام . ليكن لكم من حماستكم القومية دافعاً الى تصوير الحياة الشرقية بما فيها من غرائب الأمة وعجائب الفرح نخير لكم وللغة العربية أن تتناولوا أبسط ما يتمثل لكم من الحوادث فى محيطكم وتلبسوه حلة من خيالكم من أن تعربوا أجل وأجمل ما كتبه الغربيون .

تذكارات محب (١)

كنت فى الثامنة عشر عند مافتح الحبُّ عينيّ باشعته السحرية ، ولمس نفسى لأول مرة باصابعه النارية ، وكانت سلمى كرامه المرأة الاولى التى أيقظت روحى بمحاسنها ، ومشت أمامى الى جنة العواطف العلوية حيث تمرُّ الايام كالاحلام وتنقضى الليالى كالاعراس

سلمى كرامه هى التى علمتنى عبادة الجمال بجمالها ، وأرتنى خفايا الحب بانعطافها ، وهى التي انشدت على مسمعى أول بيت من قصيدة الحياة المعنوية

أي فتى لايذكر الصبية الأولى التى أبدلت غفلة شبيبته بيقظة هائلة بلطفها ، جارحة بعذوبتها ، فتاكة بحلاوتها ؟ من منا لايذوب حنيناً الى تلك الساعة الغريبة التى اذا انتبه فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحولت ، وأعماقه قد اتسعت وانبسطت وتبطنت بانفعالات لذيذة بكل مافيها من مرارة

(١) هذه توطئة رواية « الاجنحة المتكسرة »

الـكتمان ، مستحبة بكل ما يكتنفها من الهموم والشوق والسهاد. لـكل فتى سلمى تظهر على حين غفلة فى ربيع حياته وتجعل لانفراده معنى شعرياً وتبدل وحشة أيامه بالأنس ، وسكينة لياليه بالأنغام

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الـكتب والاسفار عند ما سمعت الحب يهمس بشفتى سلمى فى آذان نفسى ، وكانت حياتى خالية مقفرة باردة شبيهة بسُبات آدم فى الفردوس عند ما رأيت سلمى منتصبة أمامى كعمود النور فسلمى كرامه هى حواء هذا القلب المملوء بالاسرار والعجائب وهى التى أفهمته كنه هذا الوجود وأوقفتـه كالمرآة أمام هذه الاشباح . . . حواء الاولى أخرجت آدم من الفردوس بارادتها وانقياده أما سلمى كرامه فادخلتنى الى جنة الحب والطهر بحلاوتها واستمدادى، ولـكن ما أصاب الانسان الاول قد أصابنى ، والسيف النارى الذى طرده من الفردوس هو كالسيف الذى أخافنى بلمعان حده وأبعدنى كرهاً عن جنة المحبة قبل أن أخالف وصية وقبل أن أذوق طعم ثمار الخير والشر

واليوم ، وقد مرت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها رسوم تلك الايام ، لم يبق لى من ذلك الحلم الجميـل سوى تذكارات موجعة ترفرف كالأجنحة غـير المنظورة حول رأسي ، مثيرة تنهدات الأسى فى أعماق صدري ، مستقطرة دموع اليأس والاسف من أجفانى . . . وسلمى — سلمى الجميلة المذبة قد ذهبت الى ماوراء الشفق الازرق ولم يبق من آثارها فى هـذا العالم سوى غصات أليمـة فى قلبي وقبر رخامى منتصب فى ظلال أشجار السرو . فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقى ليحـدث الوجود عن سلمى كرامه . غير أن السكينة التى تخفر القبور لاتفشى ذلك السر المصون الذى أخفته الآلهة فى ظلمات التابوت ، والاغصان التى امتصت عناصر الجسد لاتبيح بحفيفها مكتونات الحفرة . أما غصات وأوجاع هذا القلب فهى التى تتكلم وهى التى تنسكب الآن مع قطرات الحـبر السوداء معلنة للنور أشباح تلك المأساة التى مثلها الحب والجمال والموت

فيا أصدقاء شبيبتى المنتشرين فى بيروت اذا مررتم بتلك

المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيروا يبطء كيلا تزعج أقدامكم رفات الراقدين تحت أطباق الثرى وقفوا متهيبين بجانب قبر سلمى وحيوا عني التراب الذي ضم جثمانها ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم : هنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفته صروف الدهر الى ما وراء البحار ، وههنا توارت أمانيه وانزوت أفراحه وغارت دموعه واضمحلت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السرو والصفصاف ، وفوق هذا القبر ترفرف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى ، مرددة مع أشباح الوحشة ندبات الحزن والأسى ، نائحة مع الغصون على صبية كانت بالأمس نغمة شجية بين شفتي الحياة فأصبحت اليوم سراً صامتاً في صدر الارض

استحلفتكم يارفاق الصبا بالنساء اللواتي احببتهن قلوبكم أن تضعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة التي أحبها قلبي — غرب زهرة تلقونها على ضريح منسيّ تكون كقطرة الندى التي تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الوردة الذابلة

أمين الريحانى

من زعماء الحركة الفكرية فى سوريا ومن دعائم النهضة الأدبية فى المهجر . دعته صحافة سوريا فيلسوف الفريكة (نسبة الى مسقط رأسه) على أننا لانخطىء اذا دعوناه فيلسوف سوريا . فقد كان ولم يزل امام المفكرين فيها

وُلد الريحانى فى الفريكة سنة ١٨٧٩ وهاجر إلى الولايات المتحدة وهو في الحادية عشرة من سنيه . فاقتبس الآداب الانكليزية والعربية دون مدرسة . على أنه تردد الى مدرسة ليلية زمنا استعدادا لدرس الشريعة . ثم دخل كلية الحقوق وغادرها دون أن ينهى دروسها ، ونزع الى فن التمثيل فكانت له فيه اجادة دعته الى الانخراط فى سلك جوقة تمثيلية أميركية ، وما لبث أن تركها وانقطع الى سواها حتى بارح البلاد عائدا الى سوريا سنة ١٨٩٨ وهى أول عوداته الى الوطن . فاقام زمنا ثم عاد الى الولايات المتحدة . ولم يلبث أن ركب البحر ووجهته سوريا للمرة

الثانية سنة ١٩٠٤ فاقام فيها ست سنوات وهي سنوات تنسكه الشهيرة في وادي الفريكة — سنوات أثمرت وعادت بالنفع على الاداب العربية . وكيف لا وفيها تمخضت قريحة الريحاني بالريحانيات وكتاب خالد وسواهما . ثم آب الى أميركا ومكث فيها حتى سنة ١٩١٢ فعاد الى سوريا عودته الثالثة ، ثم رجع الى الولايات المتحدة ولم يبارحها بعد ذلك الا مرتين تردد فيهما الى المكسيك هربا من شتاء نيويورك القاسي .

والريحاني يكتب بالانكليزية كالعربية وله مقالات نفيسة فيها ظهرت في أمهات الجرائد الاميركية : ومن كتبه المطبوعة بالانكليزية « كتاب خالد » و « رباعيات أبي العلاء المعري » المنظومة شعرا و « خارج الحريم » وله بالعربية من الكتب المطبوعة « الريحانيات » الشهيرة الجزء الأول والثاني . ونبذة في الثورة الافرنسية و « المكاري والكاهن » وزنبقة النور وله الجزء الثالث والرابع من الريحانيات تحت الطبع

المدينة العظمى

السلم والهاوية لانهـاية لهما فى الحياة . لأن الدرجة الأولى منهما فى المهد والدرجة الأخيرة فى القبر . أينما كان المرء اذن يرى كثيرين من الناس فوقه وكثيرين تحته . وكلما ارتقى درجة فى معالم الفوز والفلاح يسمع أصواتاً بعيـدة تدعوه الى ماهوفوقها.

وكما فى الناس كذلك فى المدن . فلا يحق للوندرة مثلا أن تصعر خدها للقاهرة ولا للقاهرة أن تشمخ بانفها على بيروت . لأن حسنات المدينة العظمى قد تـكثر فى هـذه وتقل فى تلك.

المدينة العظمى هى التى لاتتداخل فى شؤونها سلطة أجنبية . هى التى يـكون كل امرىء فيها تمثالا للحرية والاخاء . هى التى يتعلم الاولاد الاستقلال وعزة النفس فى مـدارسها قبل كل العلوم . هى التى تـكون الصـداقة فيها أمرا مقدسا والاخلاص محترما كسر من الاسرار الآلهية

قيل لبعض العرب :

ـ من سيدكم ؟

قالوا : ـ فلان

قيل : ـ بم سادكم ؟

قالوا : ـ احتجنا الى علمه واستغنى عن دنيانا . وقال سيد من العرب لقومه :

ـ اعلموا أنى ما سدت عليكم حتى صرت عبدا لكم أغدق على سائلكم . وأصفح عن جاهلكم . وأحوط حريمكم وأدفع عن غريمكم . فمن فعل مثل فعلى فهو مثلى . ومن فعل فوق فعلى فهو فوقى . ومن فعل دون فعلى فهو دونى .

فهل يا ترى يوجد بين المتمدنين اليوم من تجتمع فيه هذه الخلال الشريفة كلها ؟ أفلا يحق لمدينة للمستقبل أن تفاخر سائر المدن بمثل هذا الامير ؟

وبين العرب من كان أعظم منه ، دخل ابن العباس علىَ علىّ بن أبى طالب خارج الكوفة وهو يقطب نعله. فقال له :

ـ ماقيمة هذه النعل ؟

فقال ابن عباس : ـ لاقيمة لها

فقال له علىّ : ـ لهي أحب الى من إمرتكم . إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا .

فالمدينة العظمى هى التى يكثر فيها مثل هؤلاء الرجال العظام الصالحين .

الجوع

اذا نضبت فى البلاد الانهار ، واستحالت السماء نحاساً حاميا ترسل أشعة شمسها نقمة وانتقاما فتحرق الاشجار وتأكل النبات ، وتجفف الارض ، وتجعل الحقول كالصحراء يحدث فى الناس مجاعة لا يد جانية فيها للانسان

واذا غزا الجراد زرع أمة ومروجها ، يلتهم الاخضر واليابس كشمس النفود فى الصيف ، فلا يترك وراءه شيئاً يصلح للغذاء ، يحدث فى البلاد مجاعة لايد أثيمة فيها للانسان.

واذا القى الوباء في أمة عصاه ، وشرع يفتك فيها فتكا ذريعاً اوجب عليها النطاق الصحى فابعدها من خيرات الارض خارج تخومها ، قد تجهز عليها مجاعة لايد جانية فيها للانسان

واذا كانت أمة في حرب فحاصرها العدو وحبس عنها

الزاد فأبت التسليم صاغرة ، قد تهلك جوعاً ، ولا ذنب فى ذلك على العدو أو عليها اما اذا وطأ الجيش المحاصر أرضها وأبت البقية الباقية الرضوخ والاستكانة ملجة فى العصيان فقد يتخذ الفاتح التجويع طريقة للاستيلاء التام وقد يكون الذنب في ذلك عليها

ولكن أمة طائعة أولياء أمرها ، أمة مخلدة الى السكينة أمة بريئة طاهرة الذيل ، ترباً على الضيم صبورة ، سكوتة جلودة ، تربتها في الاقل لم تزل جيدة ، أنهارها لم تزل جارية سماؤها لم تزل مقيمة على عهودها ترسل غيثها خيراً شتاء ربيعاً — فى مثل هذه الامة لا تحدث مجاعة الا لاحد أمرين — لجهل فيها أو لجور فى أولياء أمرها

والمجاعة التى لا يد فيها للطبيعه أو للقضاء او لله انما هى جناية الانسان الكبرى على أخيه الانسان

أن خيرات الارض لتكفي أبناء الارض وان التكافل والتعاون لمن أوليات الوجود الانساني الحضرى منه والمدنى . فاذا أغفلنا الآن البحث فى أسباب المجاعة ونظرنا

فى نتائجها فقط نحتم علينا النظر أيضاً فى الطرائق الفعالة لازالتها — ولازالتها سريعاً.

أمة صغيرة فى بقعة قصية من الارض تتضور اليوم جوعا . وأمة كبيرة عزيزة الشأن عظيمة الصولة يفيض عنها من خيراتها أليس من العدل اذا — بل من الواجب المقدس أن نأخذ مما فاض عن هذه لنطعم تلك الجائعة ؟ نعم . ومايصح فى الامم يصح فى الافراد . وهذا التعديل فى خيرات الارض عدل لافضل فيه لمن أعطى ولا شكر عليه ممن قبل العطاء

الامة المنكوبة أمتنا أيها الناس . الجياع فيها اخواننا . وان الفائض عنا اليوم لا حق لنا به البتة . لا والله . ليس ما فاض من خيرنا اليوم لنا بل هو للجياع فى بلادنا . ولو كنت من أولى السيادة والسلطان لاخذت اليوم من الشبعان لاطعم الجائع — لفرضت على كل سورى مقداراً من المال يدفعه راضياً أو مكرهاً

وماذا يضر السورى لو دفع اليوم دولاراً واحداً لاغاثة

اخوانه فى الوطن . دولاراً واحداً على كل سوري الفقير والغنى سوآء

انى من أصحاب الرأي لامن أصحاب السيادة لذلك لا أستطيع ان أضرب ضريبة هى حق والله على كل سوري . ولـكنى عملت بطريقتى وبحق فدعوت اخوانى فى المهجر فى مقال سبق الى الصوم يوما واحداً يدفعون ما يوفرون فى هذا اليوم اعانة للمنكوبين . وقلت اننا اذ خبرنا الجوع نرثى لحال الجائع فنسرع لاغاثته

وكي لا يقال انى أبشر بما لا أفعل بدأت بنفسى عاملا برأيى . فانى محاسب لقلبي اذا مال وللسانى اذ قال . لذلك صمت عن الاكل والشرب والتدخين يومين وصالا . ودفعت نفقة اليومين الى اللجنة وجئت فى هذا المقال أطلع القارىء على ما خبرته من نتائج الصوم ومفعول الجوع

فاذا كانت كلمتى فى الصوم ذهبت أدراج الرياح عسى أن يؤثر عملى فيحمل اخوانى فى المهجر على الاقتداء بى من الساعة السابعة مساء حين بدأت أصوم حتى الساعة

الثالثة بعد ظهر اليوم الثانى لم أشعر قط بالجوع . ولكننى أحسست بطنين فى أذنى وبتجفف فى لسانى . وبشىء من المرة فى فمى . على انى في الساعة السابعة أى بعد مرور أربع وعشرين ساعة بدأت أشعر نوعا بالجوع وبالعطش وبشىء من الدوار.

كنت أصيل هذا النهار أتمشى وصديق لى فى احد شوارع المدينة فررنا بمطعم صفت فى شباكه أنواع الخبز والكعك والحلويات فوقفت امام الزجاج الحائل دوني وتلك الجنة ناسيا ذاتى أمثل فى نفسى ولداً فقيراً جائعاً لا فلس فى يده يفتأ به سورة جوعه . اخترقت الزجاج عيناى وما فيهما من نهمة الى الاكل فتحلب اللعاب فى فمى فمصصت بمر مذاقه وترغرت عيناً بالدموع . هذا وانا لا أشعر حقاً بمضض الألم فى معدة فارغة وقلب يقتر شوآء لانى أجوع مختاراً والمسكين الذى صورته أمامى بل أمام تلك المآكل المصفوفة وراء الزجاج يجوع مكرها . ان جوعى ينتهى ساعة أريد وأما جوعه فلا يزول الا ساعة يتصدق عليه أحد

المحسنين فقلت فى نفسى أن حالة اجتماعية توجد مثل هذا المسكين الجائع لحالة ذميمة ، منكرة ، فاسدة ، جهنمية. واذا كانت كذلك فكيف بها والمسئولون عنها يجوعون عمداً أمة باسرها ؟

لقد شاركتك جوعك يا أخى فتعال أقاسمك كسرتى عله تعالى يمدنى من ذل الحاجة والاستجداء الذى هو أشد ويلا من مضض الألم الذى ولده الجوع . الا فليردد كل سورى هذا الكلام — هذا الابتهال وليمثل حول مائدته الفاخرة صبياً فقيراً عضه الجوع ، أنهكه ، أقعده ، أضناه ، أورثه الهزال والخبل فيسارع الى اغاثته.

ومن غريب أمر الصوم ان صاحبه لا يشعر بالجوع الا في الساعات التى اعتاد أن يأكل فيها . فانى بعد ان أتمت الساعة العاشرة استفقت نصف الليـل ولا اثر فى نفسى للصوم ، كأنى قضيت البارح وقد اكلت على عادتى ثلاث مرات .

ولكننى نهضت صباح اليوم الثانى وفىّ ساعة الفطور نهمة الى الاكل . وهذا لاشك من قبيل العادة . على أن مظاهر الجوع ازدادت نوعا وشدة . فتحت فمى فاذا به كالقطن جفافا بلعت ماتحلب من رضابى اذ مررت بركوة القهوة فاذا به أمر من الحنظل . نظرت الى لسانى فاذا به أبيض كالحليب . لمسته باصبعي فاذا به كعباءة الراهب خشونة . أما أذناى فازدادتا طنينا . وأحسست أن رأسى جسم غريب ركب موقتا بين كتفى . نزلت الدرج وعدت الى غرفتى فألمت بي نوبة من الارتعاش شديدة أقعدتنى بضع دقائق وأنا أرتجف حتى أطرافى . وكنت أثناء ذلك أحس بموجات حارّة تتماوج فى داخلى وبالاخص فى جوار المعدة .

فقلت فى نفسى قد عضك الجوع يارجل . قد دنوت من اخوانك فى الوطن . ثم بدأت فى اليوم الثانى أشعر بالجوع وأتألم من شعورى . فهذا الضعف فى رجلى وبالاخص فى مفاصلى وركبتى ان هو الا احتجاج المعدة على

صاحبها . بل على باريها . بل على من فى أيديهم خزائن الأرض المسئولين عن توزيع خيرات الدنيا على عباد الله.

مررت بركوة القهوة ثانية فوقفت أمامها راغبا مترددا ثم امتنعت لأنى آليت على نفسى أن أصوم يومين كاملين . وفى البيت المقيم فيه أناس فى الدور الاسفل يطبخون طعامهم فتتصاعد أحيانا روائح للمطبوخات فتسطع فى منزلى وتزعجنى جدا . ولكن اليوم يوم الصوم والجوع ـ فان امرءاً يقتر شواء يتصاعد صوت نشيشه من فوق النار الى منزلى لاحب عندى من مطرب أو مطربة . وان روائح الشواء والاباذير فى أنفى لالذ من روائح المسك والبخور .

ولت ساعة الفطور وولى معها مضض الجوع ولاغرو فان للعادة حتى فى الاكل كما قلت تأثيرا شديدا فينا . اذ ما السبب يا ترى فى رغبتى بالطعام فى ساعات اعتدنا أن نتناوله فيها وفى نسيانه بل الرغبة عنه فى الفترات بينها ؟ أما الفكر منى ففى اليوم الاول من صومى كان لم يزل رائقا

صافيا . ولكنه فى اليوم الثانى أصبح خاسئا حسيرا .

ومن غريب أمر الصوم أيضا أن الذى يصوم يومين يستطيع أن يصوم خمسة بل عشرة أيام وصالا . فأنا فى مساء اليوم الثانى لم أشعر بشهوة الى الاكل شديدة كمساء اليوم الأول . وقد قرأت أخبار اناس صاموا أسبوعين وثلاثة دون أن يتعطل فيهم عضو من أعضائهم الحيوية كالكبد أو الكليتين أو الرئة أو القلب .

ومعلوم أن الاقدمين كانوا يكثرون من الصوم والتنحس . وقد قال ابن خلدون — « وقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوما وصالا » .

على أنه لاينكر أن الصوم أياما وصالا يفقد المرء قواه الجسدية والعقلية فان العضلات والاعصاب لتتقلص وتذوب من الاقتيات مما كونت منه وأن العقل ليخسأ ويمرض من تشرب دم لاغذاء فيه ، أى أن الصائم طويلا الطاوى أياما يعيش على لحمه ودمه ، يأكل بالحقيقة نفسه .

ثم اخوانى . ان الجائع يعيش على لحمه ودمه . والجائع كرها يقاسى من مضض الذل ـ ذل الحاجة وذل الطلب ـ ما هو أشد من مضض الجوع

كتبت مرة نبذة أنتقد فيها بعض التعابير العربية التى نرددها نحن الكتاب وقلما نحقق تمام معناها . من جملتها قولنا . « الجوع المدقع » فاستغربت اذ عدت الى القاموس النحت وقلت أن لا أحد يجوع جوعا يلصقه بالدقعاء أى التراب ، فمهما اشتدت سورة الجوع لا تبلغ درجة يصح أن ننعتها بالدقوع ، ولكنى تحققت اليوم خطأى ، فان الجوع يوهن ، يهزل ، ينهك ، يقعد ، يهلك ، واذا كان الجائع هائما فى البرية يطلب الاعشاب يقتات بها فليس من الغريب أن يسقط فى الطريق من شدة الجوع ، ثم رأيت كلاب السوق فى الشرق فى جوع الصلق بطونهم ووجوههم بالتراب ، وكنت أجل البشر عن ذلة الكلاب وجوعهم

فوا أسفاه ! اننا لنتحقق اليوم من حال بلادنا صحة التعبير العربى بل تحققنا التقصير فيه لا الغلو ، مئات بل

ألوف من اخواننا مطروحون اليوم فى الطرق والاسواق كتلاشي أجسامهم عضواً عضواً، عيونهم شاخصة الى الشمس نهارا الى السماء والنجوم ليلا ، يسألون بارى الاكوان كسرة من الخبز ، قلوب واجفة ، أبصار خاشعة ، نفوس حزينة حتى الموت ، معد تلتصق بالاضلع منهم كما تلتصق أجسامهم بالغبراء — بالتراب . فى فيهم المرة الصفراء — مر الحياة — يبتلعونها ثم يبتلعونها ، فى أعصابهم الملتصقة غصص الرعشة فى أجسامهم المرض والوهاء.

شيوخ وأطفال ، نساء ورجال ، يسارعون الى المدينة من الجبال علهم يلتقطون فى أسواقها ومن فضلات ذوى اليسار فيها كسرة من الخبز فيتساقطون فى الطرق كورق الخريف وقد استحوذ عليهم الجوع المدقع . أفلا تشاركهم جوعهم يوما واحداً أيها السورى ؛ أفلا تمدهم بنفقة يوم من أيام يسرك ؛

ووالله لو مر بهؤلاء المناكيد الجياع وحش ضار أو عقاب كاسر لمال بوجهه عليهم ، لرثى لحالهم . واننا نعلم ان

فى الحيوان غريزة هى أشرف من غريزة الانسان التى أفسدتها المدنية والتكالب فيها. فمن الطيور من يطعم صغارها من قلبها اذا لم تجد لهم رزقا.

فيا أيها السوري النائى عن اخوانك المنكوبين جئت أخبرك خاشعاً لا مفاخراً انى صمت يومين فانهكنى أقعدنى يوم واحد من الجوع. فكيف بمن يصومون أياما بل أسابيع؛ اليوم اليوم: من كان غنياً فليستعفف! من كان متردداً في التبرع فليتقدم! من كان متقاعداً فلينهض! من كان في سبات فليستفق! وما الفائدة من القول غدا غدا فان مثل هؤلاء المستحجرة قلوبهم يلوحون بثريدتهم للجائع الاقرب الى الضارى من الحيوان منهم الى الانسان.

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

الصوم: التقشف يوما واحداً: تملكون تلك النفس منكم الشارهة الى اللذات فان مثل هذه السيادة على أنفسكم لاشرف من وجاهة يجرها لكم المال. صوموا يوماً واحدا وتصدقوا علينا بدولارين مما رزقتم. الامة أمتنا جاثية على

قارعة الطريق تئن من ألم الجوع — الجوع المدقع ، الجوع المهلك ، فهلا تسارعنا، بل تسابقنا الى إغاثتها؟ « اليس بلسان فى جلماد ؟ »[1]

---

(١) ننقل للقراء الكرام بمناسبة هذه المقالة ما جاء فى جريدة الاهرام الغراء (عدد ١١ سبتمبر سنة ١٩٢٠) وهو

صوم والي كورك

منذ ١٢ أغسطس الي اليوم

قبض الانكليز على ماك سوينى حاكم كورك الارلندية لاشتراكه بكيد المكايد للضباط والجنود مع جماعة السن فين وسجنوه فى لندره فانقطع مختاراً عن الاكل والشرب منذ ١٢ أغسطس الى اليوم ولكنه لم يمت والرجل مشهور بانه من زعماء الارلنديين وبانه يتولى قيادة آلاى المتطوعين ويدير الحكومة الارلندية الجمهورية وقد باع املاكه الواسعة وأنفق ثمنها فى سبيل الدعوة الارلندية ولما كان سلفه قد مات قتلا فانه تنازل عن نصف راتبه لارملة ذلك السلف .

وليس عجيباً ان يعيش الانسان ٣٠ يوماً بلا طعام فمنذ عهد

ريح سموم

وبربك القيوم ، ما الذى تظنه يدوم ، صوت سمعته
فى الكروم ، وقد مرت عليها ريح سموم ، فجفت الارض
وعادت جزرة كثيرة الكلوم ، وسقطت الجفان عن فسائلها
وفزعت أوراقها الى الغيوم ، صوت صارخ من وراء النجوم
ما الذى تظنه يدوم ؟

ليس بعيداً صام المسمى سوكشى ٤٠ يوماً ولكنه كان يشرب كل
يوم كاساً واحداً من الماء المحلى بالسكر . ويقول الاستاذ ان
مستر لوون وشوسات أن الصائم لا يموت الا اذا فقد ثلث وزنه
وقال أحد أساتذة مدرسة الطب العليا فى باريز كلما كان الصائم
كثير الشحم طال عمره ولكنه يشترط لطول الحياة ان يظل
الصائم بلا حركة حتى لا يضيع ما فيه من حرارة الحياة . وبما أن
متوسط حرارة الحياة فى جسم الانسان ٣٧ درجة فالهبوط الى
٢٤ درجة يفضى الى الموت حتما والذى يخشى منه على الصائم تسمم
الدم ولكنهم يتفادون عن ذلك بشرب الماء الذى يحول دون
هذا التسمم وبواسطة الماء يؤجل الموت أياماً بل بضعة أسابيع

من صروح زاهية فخيمة ، من رياض زاهرة كريمة ، من بروج شاهقة عظيمة ، من معامل حديثة أو قديمة ما الذى تظنه يدوم ؟

من اسراب منورة تحت الانهار ، من أرتال فيها تدفعها الكهربائية أو يجرها البخار ، من بوارج ماخرات فى البحار ، من اساطيل تنذر بالدمار ، من معالم فى الامصار والاقطار ، ما الذى تظنه يدوم ؟

من انفاق تحت الاديم ملؤها عجاجة ، تنفثها وتثيرها القطر الولاجة ، من قباب بين السحاب وهاجة ، من جسور فوق المياه جسيمة ، من متاحف فى عواصم العالم فخيمة ، ما الذى تظنه يدوم ؟

من سدود محكمة منيعة ، من خليج كونها الطبيعة ، من تُرع تؤلف بين البحار ، وتجمع بين بعيد المطارح وشاسع الديار ، من خطوط حديدية تطوق الارض ، من أسلاك برقية تطوق المسافة فى الطول والعرض ، ما الذى تظنه يدوم ؟

من أبنية ذات الطبقات العشرين ، من احياء فى المدن الكبرى يأوى اليها المساكين ، من معابد وبيع لا أثر فيها للدين ، من أصقاع لا صوت فيها للصالحين ، ما الذى تظنه يدوم ؟

من قصور مكتنفة برياض خضراء ، من صروح الكبراء والأمراء ، من بيوت الرؤساء والأغنياء ، من أكواخ البؤساء والفقراء ما الذى تظنه يدوم ؟

من شرائع ودساتير ونظامات ، من تقاليد وعوائد وخرافات ، من أديان وعقائد وخزعبلات ، من دول وممالك وحكومات ، من أحزاب وطوائف وجماعات ، ما الذى تظنه يدوم ؟

صوت صارخ من وراء الغيوم ، صوت ريح سموم ، أى شئ يدوم .

مهلاً مهلاً ان هذه كلها لصالحة فى ذاتها ، ان هذه كلها لحسنة فى وقتها ، لكل شئ من العز والمجد أركان ، لكل شئ من أبناء البطر والأشر أعوان ، لكل شئ برهة

من دهره الوسنان ، ساعة أو عام أو حين من الزمان ،
الطويل من الدهر والقصير سيان ، ولكن قل لى بربك
القيوم مبدع الشمس والنجوم ، أتظنها الى الأبد تدوم ؟

الى حين يا أخى الى حين ، إى ورب العالمين الى حين ؛
وبعد فقل لى هل أنت من الممترين ، أم أنت من المفندين
السائلين ؟

أما فى زمانك تأملت المناور فى الصخور ، فاذكر أن
الأمطار والرياح تكونها ، والأمطار والرياح تهدمها ، ان
كل صالح مقبول حتى يظهر على ميدان العالم قائم على المظالم
البشرية ، أو مناضل عن الحقيقة الأخوية ، أو باذل مهجته
فى سبيل الانسانية ، ان كل شىء فى مركزه حريز حصين ،
الى أن يزلزله رجل حصيف رشيد ، أو امرأة صالحة ذات
رأى سديد ، فيعلو اذ ذاك صوت المطالب بحقوق
المستضعفين المستذلين ، ويلحق الجبارون بالأخسرين ، أبد
الآبدين ودهر الداهرين .

وبعد أن تلاشت ريح السموم فوق الجبال ، تلاها

نسيم لطيف الاعتلال ، فدخلت معه غابة من الصنوبر كثيفة الظلال وسمعت من خلال الأغصان ، صوت المحبة والمعروف والحنان ، سمعت صوتاً يقول ورب الاكوان ، لا يدوم إلا الاحسان والعرفان ، لا يدوم الا السجايا الروحية الفريدة ، سجايا النفس البشرية الخالدة ، لا تدوم إلا آثار النهضات الجليلة . ومآثر الأنفس السامية النبيلة ، وما أسخف الجدل الوهمي امام مشروع جليل ، وما أوهن التعاليم الوضعية فى وجه خطب جسيم ، وما أوهى الأقوال والآراء اذا قوبلت بنظرة من رجل عظيم ، أو صادفت نفحة من نفحات حكيم ، وعندما يرفع مثل هذا رأسه وصوته ولا فرق عندى رجلا كان أو امرأة يقف دولاب الأعمال ، ولا يبقى شئ على حال ، عندئذ يبطل الجدال ، وتنكسر شوكة المال ، وتحشر الرجال ، وتكبر الآمال ، يومئذ تنقلب المجتمعات ، وترتعد فرائص الطغاة الجفاة ، عندئذ تتغير العادات ، وتهب على الأرض الذاريات السافيات ، فيسأل السائل من وراء النجوم أين ملكم

ونفوذكم ، أين تقاليدكم وعقائدكم ، أين شرائعكم ودساتيركم ، أين حصونكم وصروحكم ، أين مصانعكم ومعاهدكم ، أين زخرفكم وسفاسفكم . فقل ان هي الا برهة من الدهر الوسنان ، ساعة أو عام أو قرن من الزمان ، قل وربّ الأكوان ، لا بقاء لما سوى آثار المجد والعرفان ، والمعروف والحب والاحسان ، فهي هي الجبال الراسيات ، وهي هي الحصون الواقيات ، وهي هي الباقيات الصالحات . بلى ورب السماء والنجوم ، لن تدوم إلا آثار النفوس الطاهرة ووجه ربك الحي القيوم .

ميخائيل نعيمة

كاتب شاب لم يبلغ الرابعة والثلاثين حتى الآن .
ولكنه أدرك من الأدب شأواً يقصر دونه الكثيرون .
وُلد فى بسكنتا بلبنان وتلقى دروسه الابتدائية فى
مدرسة للروسيين هنالك ثم انتقل منها الى المدرسة الروسية
الداخلية فى الناصرة . فدرس فيها أربع سنوات انتدبته
المدرسة بعدها للذهاب الى روسيا لاتمام دروسه فى
مدارسها العالية . فسافر الى مدينة بلتافا ودخل كليتها وأنهى
دروسها . ثم غادر روسيا الى أميركا ودرس الحقوق فى
جامعة واشنطن ونال شهادتها فى الشريعة عام ١٩١٦
ميخائيل نعيمة من الساعين فى تأسيس عصر ذهبي
للآداب العربية فى المهجر . وله تفنن ومهارة ومقدرة فى

الانتقاد قلما يجاريه فيها أحد . والأدباء يتوسمون فيه منتقداً جريئاً ساعياً فى تسيير الآداب العربيـة على منهاج التقدم ، منكباً على تنقية حقـل الأدب من زوان الـكويتبين والشعارير . وله « رواية الآباء والبنون »

الرواية التمثيلية العربية [١]

حنق البعض على الغرب لاعتقادهم أن المدنية الغربية نفثت فى حياتنا الجميلة الطاهرة ، الرائعة بأمن تحت أجنحة الملائكة والقديسين ، روح فسق وخلاعة وكفر . وتغنى الآخرون بعظمة الغرب فصاحوا بنا — هيا نعبد الغرب وكل ما خلقه الغرب !

أما نحن فنرى الأفضل أن نقف على الحياد بين أولئك وهؤلاء تاركين لهم حق تسوية خلافهم بالمدى والفؤوس اذا أرادوا ، بشرط أن لا يعارضونا اذا تجاسرنا أن نعترف ولو بفضل واحد للغرب — وهو فضل آدابه على آدابنا

ما تعوّد البعض أن يدعوه « نهضة أدبية » عندنا ليس سوى نفحة هبت على بعض شعرائنا وكتّابنا من حدائق الآداب الغربية ، فدبت فى مخيلاتهم وقرائحهم كما تدب العافية فى أعضاء المريض بعد ابلاله من سقم طويل .

---

(١) توطئة لرواية « الآباء والبنين »

والمرض الذي ألمّ بلغتنا أجيالا متوالية كان شللا أوقف فيها حركة الحياة وجعلها بعد عزها السابق ، جيفة تتغذى بها أقلام الزعانف المستعبدين وقرائح « النظّامين » والمقلدين . أما اليوم فقد رجعنا الى الغرب ، الذى كان بالأمس تلميذنا ، لنقتبس عنه أمثولة جعلناها حجر زاوية « نهضتنا الأدبية » وتلك الأمثولة هى أن الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان ، وأن الأدب يتوكأ على الحياة ، والحياة على الأدب ، وأنه — أعنى الأدب — واسع كالحياة ، عميق كأسرارها ، ينعكس فيها وتنعكس فيه . أدركنا — بفضل الغرب — أن نظم الشعر ممكن فى غير الغزل والنسيب ، والمدح والهجاء ، والوصف والرثاء ، والفخر والحماسة . لذلك أطربتنا نغمة بعض شعرائنا الحديثين الذين تجاسروا أن يتعدوا هذه الحدود المقدسة . وانتقلت الينا — بفضل الغرب كذلك — الرواية ، أو ما يدعونه بالانكليزية (نوفل) وبالافرنسية (رومان) . وكنا أسبق الناس اليها ، فوجدنا فيها مجالا واسعا لوصف الحياة والتأثير على العقول والقلوب

بواسطة القلم ، وأدركنا أن النثر لا ينحصر فى صف الكلام المسجع ، والاكثار من الالفاظ الشاردة المدفونة فى بطون المعاجم ، وتحبير المقالات المملة فى مواضيع مبتذلة ، فقام بيننا بعض من جربوا أن يمثلوا حياتنا اليومية فى روايات وطنية .

وهذه خطوة الى الأمام .

لكن « نهضتنا الأدبية » لا تزال فى الأقمطة ، وما نطقت به حتى اليوم ليس سوى لثغ طفل لا يزال مقيد اللسان ، محدود العواطف ، ضعيف العضل . وقد لا يحق لنا أن نلومها على هذا الضعف . لكننا لا نكتم أن رجاءنا بمستقبلها يضعف عند ما نراها قد أهملت باباً كبيراً من أبواب الأدب لو خيّر الغرب بينه وبين بقية الأساليب الكتابية لاختاره دونها . نحن نعني — الدراما — الدراما رافقت الآداب الغربية منذ نشأتها حتى هذه الساعة فأصبحت ركناً من أركانها . وأقام لها الغربى المعاهد التمثيلية (التياترو) فأصبحت هذه جزءاً من حياته اليومية كالمدرسة

والبيت والكنيسة . فى التياترو تجد نفسه الجائعة المثقلة بأتعاب العمل وهموم الحياة راحة وتعزية وقوتا . من أوحال عيشته التى يشابه صباحها مساءها ويومها أمسها ترتفع روحه الى عالم تجول فيه العواطف البشرية بين جميلها وقبيحها ، وضعيفها وقويها ، وشريفها ودنيئها . يرى بعينه على المسرح بشراً مثله غائصين فى معركة الوجود يكشفون أمامه أسرار قلوبهم ومخبآت ضمائرهم فيجد فى هذه الأسرار وبين تلك المخبآت قسما من الذات التى يدعوها « أنا » ويستعين ببعضها على اصلاح نفسه والاضافة الى خزانة اختباراته . يضم المؤلف والممثل قواهما — الأول بأفكاره والثانى بصوته وحركاته — ليخترقا حرمة انفراده الذاتى ، فيدخلان زوايا قلبه ويمسان كل أوتاره ويفتشان بين طيات ضميره ويحركان دولاب أفكاره — وبالاجمال يوقظان فيه كل قوى الوجود فيشعر أنه كائن حي وربَّ كلمة تقع في أذنه فيحتضنها للحال عقله وتختمر بها روحه ، أو رب حركة من يد الممثل ينتفض لها قلبه ، أو ربَّ مشهد يهزه بكليته كما

تهز العاصفة شجرة من جذورها . لكن هذا التأثير في السامع والناظر لا يمكن احداثه إلا اذا كانت الرواية مشهداً حياً من مشاهد الحياة الحقيقية وكان الممثل قادراً على فهم أفكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الأفكار وتأدية تلك الغاية الى السامع بواسطة الصوت والحركات . فلذلك يتوكأ المؤلف على الممثل ، والممثل على المؤلف . وغير خفي أن أفضل الروايات فى يد ممثل ضعيف تضيع كل قوتها ورونقها ، وبالعكس — ان الممثل الحاذق يلبس أحياناً أبخس الروايات حلة جمال وقوة . ولذلك رفع الغرب شأن الممثلين كشأن المؤلفين فأجزل عطاءهم بالمال وأحاطهم بالشهرة في الحياة ، وطيّب ذكرهم بعد الموت .

فماذا فعلنا نحن ؟

نحن لا نزال ننظر الى الممثل نظرنا الى « بهلوان » والى الممثلة كعاهرة ، والى التياترو كمقصف ، والى التمثيل كنوع من القصف واللهو . شعبنا لم يدرك بعد أهمية فن التمثيل فى الحياة لأنه لم ير بعد روايات تمثل أمامه مشاهد

من حياة يعرف ألفها وياءها ، لم ير بعد نفسه على المسرح .
واللوم عائد على كتابنا لا على الشعب . جلّ ما قدمناه حتى الآن الى الشعب من الروايات التمثيلية ينحصر فى بعض روايات معربة أكثرها من سقط المتاع وكلها غريبة عنه ، بعيدة عن أذواقه ، قصية عن مداركه . أنا لا أشك قط في أننا سنرى عندنا : عاجلا أو آجلا ، مسرحاً وطنياً تمثل عليه مشاهد حياتنا القومية ، انما يقتضى لذلك قبل كل شيء أن يحول كتابنا أنظارهم الى الحياة التى تكرّ حولهم كل يوم ، الى حياتنا بعجرها وبجرها ، وأفراحها وأتراحها ، وجمالهـا وقباحتها ، وشرها وخيرها ، وأن يجدوا فيهـا مواد لأقلامهم — وهى غنية بالمواد لو دروا كيف يبحثون عنها .

يبشرنا الانقلاب الذى طرأ مؤخراً على آدابنا بقدوم تياترو وطنى ولو كانت العقبات فى طريقه لا تزال كثيرة . من هـذه العقبات وهم اجتماعى لا يزال راسخاً فى عقول الكثيرين هو ان التياترو يفسـد الأخلاق الطاهرة — لا سيما أخلاق البنات والنساء . رحمتك يا ربى ! ومنها فقزنا

الى الـكتاب الروائيين والروايات التمثيلية الوطنية . لـكن أكبر عقبة صادفتهـا فى تأليف « الآباء والبنـين » — وسيصادفها كل من طرق هـذا الباب سواى — هى اللغة العامية والمقام الذى يجب أن تعطاه في مثل هذه الروايات . فى عرفي — واظن الـكثيرين يوافقونى على ذلك — أن أشخاص الرواية يجب أن يخاطبونا باللغة التى تعودوا أن يعبروا بها عن عواطفهم وأفـكارهم وان الـكاتب الذى يحاول أن يجعل فلاحا أميا يتكلم بلغة الدواوين الشعرية والمؤلفـات اللغوية يظلم فلاّحه ونفســه وقارئه وسامعــه ، لا بل يظهر أشخاصه فى مظهر الهزل حيث لايقصـد الهزل ويقترف جرما ضد فن جماله فى تصوير الانسان حسبما نراه فى مشاهد الحياة الحقيقية . هناك أمر آخر جدير بالاهتمام متعلق باللغة العامية — وهو أن هـذه اللغة تسـتر تحت ثوبها الخشن كثيرا من فلسـفة الشعب واختباراته في الحياة وأمثـاله واعتقاداته التى لو حاولتَ أن تؤديهـا بلغة فصيحة تـكون كمن يترجم أشعارا وأمثالا عن لغة أعجمية . وربما خالفنا فى

ذلك بعض الذين تأبطوا القواميس وتسلحوا بكتب الصرف والنحو كلها قائلين ان « كل الصيد فى جوف الفرا » وان لا بلاغة أو فصاحة أو طلاوة فى اللغة العامية لا يستطيع الكاتب أن يأتى بمثلها بلغة فصحي . فلهؤلاء ننصح أن يدرسوا حياة الشعب ولغته بإمعان وتدقيق .

الرواية التمثيلية . من بين كل الأساليب الأدبية . لانستطيع أن نستغنى عن اللغة العامية . انما « العقدة » هى أننا لو اتبعنا هذه القاعدة لوجب أن نكتب كل رواياتنا باللغة العامية إذ لس بيننا من يتكلم عربية الجاهلية أو العصور الأسلامية الأولى ذاك يعنى اقراض لغتنا الفصحى . ونحن بعيدون عن أن نبتغى هذه الملمة القومية . فأين المخرج ؟

عبثا بحثت عن حل لهذا المشكل فهو أكبر من أن يحله عقل واحد . وجل ما توصلت اليه بعد التفكير الطويل أن أجعل المتعلمين من أشخاص روايتى — كداود والياس وزينة وشهيدة وناصيف بك — يتكلمون لغة معربة . والاميين — كأم الياس — أن تتكلم اللغة العامية . أما خليل

سماحه — وان لم يكن اميا تماما — فقد رأيت الاحرى ان أجعله يتكلم العامية لانها توافق اطباعه ومداركه . وكذلك موسى بك فى حديثه مع ام الياس وفى بعض المشاهد التى تليق بها اللغة العاميـة أكثر من الفصحى . لكنى اعترف باخلاص أن هـذا الاسلوب لايحل « المقدة » الأساسية فالمسألة لاتزال بحاجة الى اعتناء أكبر رجال اللغة وكتابها

والمشكل الآخر الذى وقفت امامه حائراً سائلا هو ضبط كتابة اللغة العاميـة بطريقة تزيل الالتباس والابهام وتؤدى اللفظ المقصود . تركت أمر « اللهجة » التى تختلف كثيراً باختـلاف المقاطعات والامكنه الى فطنة المثـل وحذاقته لـكننى أحجمت تهيباً عن أن اضع لاجل هـذه الروايات وحدها اصطلاحات لضبط الـكلام العامى . ونحن بحاجه ماسة الى هذه الاصطلاحات اذا أحببنا أن نقـترب من الشعب وتهذيبه باقلامنا . العامة تستعمل حروفا لاوجود لها بين حروف الهجاء المعروفة مثل (C.E.O.) الأفرنسية وتلفظ القاف فى أكثر المحلات كالهمزة . فيجب أن نضيف

الى لغتنا بعض اصطلاحات تقوم مقام هـذه الحروف . انما يجب أن تكون هذه الاصطلاحات عمومية كي لايحدث تبلبل وتشويش حيث تقصد اتفاقا ووحدة . فمن يقوم لنا بهـذه المهمة ؟ لو كان عندنا مجلس أدبي أو شـبه اكاديمي لالقينا على عاتقه هـذا الأمر . أما ولا اكاديمي لنا فهـل تصدق الأحـلام وتحمل الغيرة على اللغة العربية وآدابهـ بعض ادبائنا في الشام ومصر على تأليف هيئة دائمـة تعتني بترقية اللغـة والمحافظة عليهـا وتـكييفها بموجب الزمان والأحوال ؟

افضل ألاّ اقول شيئاً عن أشخاص الرواية أو الرواية نفسـها سوى أني حاولت أن ألج فيها طرفا محـدوداً من موضوع حيوي كبير في حياة الأمم جمعاء . — وحياة شرقنا على الاخص — ذلك هو الخلاف الابدي بين الآباء والبنين والتباين الدائم بين القـديم والحديث . واذا لم يكن نصيبي منها سوى دفع بعض كتابنا الاوفر مقدرة مني في معالجة

مواضيعنا الاجتماعية على تأليف الروايات التمثيلية فقد نلت غايتى.

إذا شئنا أن نرفع آدابنا من المستنقعات التى تتمرغ فيها فعلينا أن نسعى من الآن لوضع أساس متين للمسرح العربى بتربية أذواقنا التمثيليـة وتعزيز الرواية الوطنيـة . حتى اذا نهضنا كانت « نهضتنا » نهضة جبـار أفاق من نوم طويل لا نهضة عاجز فتح عينيه ليرى الموت أمامه.

أنموذج من الرواية (١)

شهيدة — ما أغرب أطوار أمك ! أتصدق أنى لم أرَ دموعها حتى اليوم وما أشد تأثير دمعة من عين امرأة جبارة ، مستبدة كأمك . (تجلس على المقعد)

الياس — (واقفاً) لعلها تكفر بهذه الدموع عن هفواتها السابقة ، لكن دعينا من البكاء الآن . فلا دموع أمى ولا بحار مثلها قادرة أن تعكر كأس سعادتى . (بحرارة) شهيدة : (يأخذ يديها فى يديه وينظر فى عينيها .) أنت لى الكل بالكل فى هذا العالم . وأكاد أعتقد أن العناية الآلهية قد أرسلتك لنجاتى . شهيدة : أنا عاجز أن أفسر لك أهمية حبك فى حياتى . قد مرّ بى أكثر خمسة وعشرين ربيعاً . وفى كل ربيع كنت أخرج الى هذه الحديقة وأرى هذه الاشجار مزهرة وأسمع هذه العصافير تزقزق وأرى السماء الزرقاء وأشعر بصوت النسيم البليل . لكنى قبل هذا الربيع لم

---

(١) الفصل الرابع صحيفة ١١٠

أكن أرى الجمال فى كل ذلك واليوم لا أرى الازهار فقط بل أرى الحياة تدب فى عروقها وأكاد ألمس أريجها . اليوم لا أرى زرقة السماء فقط بل أرى ماوراء السماء ولا أشعر بالنسيم فقط بل ألمس روح النسيم . وأسمع تغريد العصفور فأفهم مايقوله العصفور . وكل ذلك لأن حبك قد أعطانى نوراً جديداً لعينىّ وقد كنت بدونك أعمى (يضع يدها اليمنى ثم اليسرى على فمه ثم يجلس بجانبها .) شهيدة : ما أجمل الحياة !

شهيدة — (تقهقه مخرجة من جيبها ورقة تقرأ بتمهل) بتاريخه نحن الواضعين أسماءنا أدناه قد تعهدنا أن نضع حداً لحياتنا بواسطة الشنقة...(تضحك)

الياس — (يخطف الورقة من يدها بلطف باسماً) ألا يكفيك هزءاً بى حتى تذكرينى بجنونى فى مثل هذه الدقيقة التى أحسبها بدأ حياة جديدة لى ؟ كأن دهراً قد مر من يوم كتبت هذه الورقة حتى هذا اليوم ، لندفن الماضى ! (يمزق الورقة قطعاً صغيرة) فأنا أتعهد الآن على نفسى أن أشنق

كل من لا يرى في الحياة سوى أشواكها وكل من يفرق بين قلبين يربطهما حب كحبنا . (تظهر فى البـاب أم الياس وقد أخذت زينة يدها اليمنى وداود باليسرى وخليل يمشى وراءهم والكل يسيرون نحو الياس وشهيدة).

شهيدة — (بمزح) أو تشنق أمك كذلك اذا أصرت على رفضها بقبول اتحادنا ؟ (اذ ترى أم الياس قادمة) هاهى قادمة نحونا — فماذا تفعل إذا اقتربت منى وصاحت — « اغرب عن وجهي ؟ » (تبسم).

الياس — أنا أكفل رضاها . أنا أعرف كيف أرضيها الآن .

من أنت يانفسي

إذ رأيتِ البحر يطغي الموج فيه ويثور
أو سمعتِ البحر يبكي عند أقدام الصخور
ترقبي الموج إلى أن يحبس الموج هديره
وتناجي البحر حتى يسمع البحر زفيره
راجعاً منك اليه
هل من الأمواج جئت ؟

ان سمعت الرعد يدوي بين طيات الغمام
أو رأيت البرق يفري سيفة جيش الظلام
ترصدي البرق الى أن تخطفي منه لظاه
ويكف الرعد لكن تاركا فيك صداه
هل من البرق انفصلت ؟
أم مع الرعد انحدرت ؟

إن رأيت الريح تذرى الثلج عن روس الجبال
أو سمعت الريح تعوى في الدجى بين التلال

تسكن الريح وتبقى باشتياق صاغيه
وأناديك ولكن أنت مني قاصيه
في محيط لا أراه
هل من الريح وُلدت ؟

إن رأيت الفجر يمشي خلسة بين النجوم
ويوشي جبة الليل المولى بالرسوم
يسمع الفجر ابتهالا صاعداً منك اليه
وتخرّى ، كنبي هبط الوحي عليه
بخشوع جاثيه
هل من الفجر انبثقت ؟

ان رأيت الشمس في حضن المياه الزاخرة
ترمق الارض وما فيها بعين ساحرة
تهجع الشمس وقلبي يشتهي لو تهجعين
وتنام الارض لكن أنت يقظى ترقبين
مضجع الشمس البعيد
هل من الشمس هبطت ؟

ان سمعت البلبل الصياح — بين الياسمين
يسكب الالحان ناراً فى قلوب العاشقين
تلتظى حزناً وشوقاً والهوى عنك بعيد
فأخبريني هل غنا البلبل فى الليل يعيد
ذكر ماضيك اليك
هل من الالحان أنت ؟

إيه نفسى أنت لحن فيَّ قد رنَّ صداه
وقعتك يد استاذٍ خفى لا أراه
أنت ريح ونسيمٌ أنت موج ، أنت بحر
أنت شمس أنت رعد أنت برق أنت فجر
أنت جزء من إلٓه :

الشعر والشعراء

بحث إنتقادى أدبى

٣

حرية الابداع

قوانين الشعر . كسواها من الشرائع والسنن . تقيد الحر . وتعتق المقيد . فهى سجن للقريحة الوقادة ومسرح لاتُحد أطرافه للقريحة الخامدة . دعونى أبسط هذه الحقيقة بالمثل.

تصوروا حظيرة محاطة بسياج من الشوك . فيها الأسد والضبع والنمر والذئب والثعلب والأرنب والخروف والحية والسلحفاة وربوات من هوام الهواء وحشرات الارض . تخفرها زمرة من البدو مدججة بالرماح والسيوف والنبال . وتصوروا أن أكبر فضيلة يطلبها صاحب تلك المخلوقات منها هى بقاؤها ضمن السياج .

يتخطر الأسد ذهابا وإيابا فيصل إلى السياج وينظر إلى ماوراءه فيرى فضاء لا يحد ومجالا لايقاس . يسمع نبضات قلبه تتضاعف ويشعر بنار تتأجج فى صدره . أصوات تناديه من الغابات . وأشباح في الفضاء تسحر أبصاره ونسمات من الجبال تزيد ناره ضراما وتولد تحت أرجله مناخس لاترحم ولا يطاق ألمها . انظروا إلى عضلاته تتجمع وتتوتر وإلى عينيه تقدحان شرراً . وقد تحفز للوثوب من فوق السياج ليلبي دعوة الغابات ويخفف دقات قلبه.

« قف : » — خيال الخفير يمر أمامه فيذكره أن بقاءه ضمن السياج هو أكبر فضيلة . بل الفضيلة الوحيدة التى يطلبها منه صاحبه . والأسد ليس آخر المخلوقات فى طلب الفضائل اذا كانت ترضى صاحبه فيرتد عن السياج وقد فارق البرق عينيه وسكنت لواعج النار فى صدره .

كذا يفعل النمر والذئب والضبع . ولكن الآلام التى يقاسونها وغصات الفؤاد التى يشعرون بها عند ارتدادهم

عن السياج تختلف باختلاف أطباعهم . وشتان بين النمر والحمل .

هنا يتقدم ابن آوى الى السياج وبينا هو يحفر بيديه منفذاً ليخرج منه يرى صاحبه يقترب . وعصاه في يده فيحييه بلطافة فائقة ويسأله عن صحة « المدام معلمته » ويعود جارا ذيل الفخر بان صاحبه لم يكتشف حيلته . وأنه لا يزال يعده من الطائعين .

أما الأرنب فيدنو من السياج وإذ يلقى نظرة إلى ماوراء الشوك ويرى ظل الأشجار ويسمع حفيف اوراقها أو يسمع وقع أقدام الخفير يقفل للحال راجعاً شاكرا ربه الذي منّ عليه بصاحب شفوق ليعتنى به وبسلامته ، وليقيم حوله الحصون والقلاع كي لا تلحقه يد أثيمة من أيادى تلك الأبالسة المنفية خارجاً التي لا سياج حولها يقيها غدرات من هم أشد منها ولا صاحب لها يحافظ على امنها . وفوق ذلك فصاحبه راض عنه لانه من الطائعين

وهناك أقبلت السلحفاة تتهادى وقد حفرت في قلبها

تلك الآية الذهبية — فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة لاتعد الدقائق ولا الساعات . ترى بقية الحيوانات حولها تركض وتزأر وتزمجر وتشكو وتتذمر وهى تسأل ذاتها بدهشة كلية مامعنى تلك الحركة كلها وما عسى أن يكون سبب ذاك التذمر ؟ تسمع الأسد يئن من ضيق المجال ويطلب الفضاء . فتنظر يمنة ويسرة ولا ترى من عقبة فى وجهها كيفما انقلبت . فتضحك حتى تنقلب بطنها لظهر وتقول فى ذاتها حقا « إن الجنون فنون »

واذا حدث وقادتها خطواتها الى السياج يوما تدير للحال رأسها يمنة أو يسرة وتتابع السير . ويكفيها أن صاحبها راض عنها أبداً . فهى لم تسمع منه كلمة تأنيب فى حياتها .

أما عن الحشرات فلا تسل . ربوات منها تدب فوق ربوات وكلها لاتطلب أكثر من فتر من الارض . فهى ضمن السياج آمن على ذواتها وحريتها مما لو كانت خارجه .

وفوق ذلك هى تتنم برضا صاحبها وتفتخر بنفس الفضيلة التى تربط النمر ورفقه ضمن السياج.

ولو تصورتم الآن بدل سياج الشوك قواعد الشعر العربى وبدل الحيوانات ضمن السياج شعراءنا (وليعذرونى على هذا التشبيه فالانسان حيوان ناطق على كل حال) وبدل صاحب الحظيرة وحراسها مئات الاجيال والدواوين التى التفت حول أشواك السياج فحولتها الى أسنة تقطر سما وحراب ينظر من أطرافها الموت وأكسبتها حياة هيئة سرية غريبة فجعلتها مقدسة فى أعيننا، مرهوبة فى قلوبنا، بعيدة عن أن يتناولها قلم الناقد أو أن يلحقها لسان المصلح.

لو تصورتم ذلك لأدركتم كم دفنت اللغة العربية ضمن السياج من أرواح حرة ونسمات سماوية وقرائح حية وكم أدخلت اليه من أرانب وسلاحف وحشرات، ولأدركتم فى الوقت نفسه حالة بشرى خاطئ مثلى جاء يحفر الآن حول ذلك السياج، بل السور الذى شادته الاجيال وقدسته

الأيام والشرائع والعادات بجملته مدفنا لحرية الخيال وقصراً للزعانف والديدان.

أنا أحفر ، ولا أمل لى أن أزعزع أركان هذا السور الى الأبد (وحبذا لو كان ذلك فى إمكانى .) إنما لى أمل أن أجد من يضم فأسه الى فأسى . لى أمل أن أسمع صدى ندائى يتردد فى ألحان بعض شعرائنا الناشئين . لى أمل أن أحرر ولو قريحة واحدة شعرية من قيود كبلتنا بها زمرة من أبناء البادية قبل أن رأينا العالم أو رآنا العالم .

دعوا النسور تحلق فى جوها فالفضاء كله وجد لأجلها دعوا البزاة تسبح تحت سمواتها . دعوا الصقور تمزق الهواء بأجنحتها وربكم لا تحصروها مع الدجاج فى الأقنان !

إذا شقّ عليكم أن تودّعوا بحور الشعر أفلا سبيل لكم أن تستغنوا عن علم العروض والقوافى؟ وإن لم يسهل عليكم أن تطرحوا الأوزان أفلا طريقة نطرح بها عنا القافية ؟ وإذا استحال علينا أن ننبذ القوافى أمن الواجب أن نلصق بكل بيت من أبيات القصيدة ذنبا و « كشكشا » متشابهين؟

أمن العجب ان شعراءنا اليوم لا يتجاوزون هذه الحدود التى وضعها لهم الأسلاف ؟ أنا لا ألومهم فى ذلك ، انما لا أقدر أن أفهم كيف انهم لا يزالون يجرون نيراً ثقيلا تقرحت رقابهم تحته ولم يخطر لواحد منهم أن يطرحه عن عنقه .

أنا لا أصدق بوجود شاعر عربى لم يناطح القوافى ويطاردها ولم يصرف دقائق ، بل ساعات ، بل ليالى فى حربها والتنقيب عنها ، أنا لا أصدق بوجود واحد لم يشعر فى مثل تلك الساعات بثقل النير وضغطه وبلعنات تترا كض إلى أطراف لسانه خارجة من أعماق قلبه ، وإذا كنا إلى الآن لم نسمع شكوى ولم نرَ اعتراضاً فذاك لأننا ألفنا احتمال الضنك « على السكت » ، وكثيراً ما نفضل أن نصبر على الضيم من أن نرفع ضده صوتاً.

الفنون الجميلة ، كسولها من مناهج هذه الحياة وفروعها ، معرضة للظلم والفساد والعبودية والاستبداد فهى تحتاج بين الفرصة والأخرى إلى محررين يجرأون أن يرفعوا

صوت الاعتراض ضد قيود الاستعباد . للمماليك محرروها وللأديان مصلحوها وللفنون محيوها . والشعر كفن جميل يحتاج دائماً الى نسمة حياة جديدة تنعش عظامه القـديمة . وشـعرنا العربي لا دواء له سوى ثورة تزعزعه من أركانه فتقتلع كل ما عفن وانتن من أصوله وتقيم على أنقاضه بناء جديداً للقريحة العربية الحرة .

وانى لأرى الغيوم تتلبد والفضاء يقتم والبرق يلمع وأسمع زعزعة الريح عن بعيد وولولة الأشجار فى الغابات.

وانى لأشتم رائحة العاصفة وقد انتشرت فى الهواء ، وليس ذاك اليوم بعيداً حين تقصف أول رعدة وتنفجر أول سحابة لتجرف أوهامنا الشعريةوتمتقنا من قيود تـكاد تذهب بأنفس ما فينا من المواهب والآمال . لا بل قد أتى ذاك اليوم فانى لأقرأ فى نثر جبران خليـل جبران صرخة للشعر القديم وقواعده ، وفى بعض أشعار « اليف » أرى لحد القافية المتتابعة في كل بيت من أبيات القصيدة .

واذا كنت قد أطلت الحديث فى هـذا الباب فذاك

لأن قشعريرة تعتريني عنــد ما أفكر بالساعات والأيام والسنين الذهبية التي تصرفها شبيبتنا داخل المدرسة وخارجها في الاعتناء بحفظ كل ما يتعلق بالنظم من القواعد والقوانين وفي درس قشور الشعر لا لبه . لأني أرى أمتنا السورية التاعسة مشبكة بالقيود من الداخل والخارج فيشق عليّ أن تراها تمكن ما تقدر على حله منها بأيدينا وكفانا يا قوم ما نحمله من تظلم الغير وتعديهم . وأخيراً لأني أرى مواهب شعرية حقيقية وقرائح حرة حية تذهب ضحية الأوهام التي ورثناها عن أبناء البادية فتنسحق تحت ثقلها أو تضيع بين منعرجاتها وسراديبها وبما اني لا أرى عندنا من المواهب ما تقــدر أن نستغني عنه أو نغرقه على الغير أو تقدمه ذبيحة لعلماء الشعر وأئمة اللغة فأنا أغار على كل ذرة منها تذهب سدى أو تموت لأن جراثيم الموت التي ورثناها عن أجدادنا تولد معها وفي امكاننا أن نستأصل تلك الجراثيم اذا شئنا .

وقد آن لنا أن نقف ولو مرة في ألفي عام أمام هــذا السور الحديدي من الأوهام والتقاليــد التي زفها الينا .

الأسلاف ونسأل ما هو وهل نحن فى حاجة اليه . آن لنا أن نكف ولو بوهة قصيرة عن حرق بخورنا امامه ليتبدد عنه دخان الدهر فنراه في هيأته الحقيقية . ولو فعلنا ذاك لانقشعت عن أبصارنا غمامة رافقتنا دهوراً ولم نكن ندرى بها .

فحبذا يوم نسمع فيه شاعرنا يوقع ألحانه على الأوزان التى يختارها قلبه وتميل اليها نفسه دون أن يرى ذاته مربوطا بلوازم العروض والقوافى . حبذا اليوم يوم لا نعود نعبد فيه الهيأة الخارجية أو تقيس الشاعر بقواعد الصرف والنحو . وحبذا اليوم ندفن فيه الطائيات واللاميات والعينيات والخاليات في غبار التاريخ وتفتح لشعرائنا مجالا للخيال والتعبير لا تحصره قافية ولا يقيده روى !

أخي

أخي ! إنْ ضجّ بعد الحرب غربيٌّ بأعماله ،
وقدّس ذكر من ماتوا ، وعظّم بطش أبطاله ،
فلا تهزج لمن سادوا ، ولا تشمت بمن دانا ،
بل اركع صامتاً مثلي بقلبٍ خاشعٍ دامٍ
لنبكي حظّ موتانا

* * *

أخي ! ان عاد بعد الحرب جنديٌّ لأوطانه ،
وألقى جسمه المنهوك في أحضان خلّانه ،
فلا تطلب اذا ما عدت للأوطان خلّانا ،
لأن الجوع لم يترك لنا صحباً نناجيهم
سوى أشباح موتانا

* * *

أخي ! ان عاد يحرث أرضه الفلّاحُ أو يزرعْ ،
ويبني بعد طول الهجر كوخاً هدّه المدفعْ ،

فقد جفّت سواقينا ، وهدّ الذلّ مأوانا ،
ولم يترك لنا الأعداء غرساً في أراضينا
سوى أجياف موتانا

*
* *

أخي ! قد تمّ مالو لم نشأه نحن ماتمّا ،
وقد عمّ البلاء ، ولو أردنا نحن ماعمّا ،
فلا تندب ، فاذن الغير لا تصغى لشكوانا ،
بل اتبعني لنحفر خندقاً بالرفش والمعول
نُواري فيه موتانا

*
* *

أخي ! من نحن ؟ لا وطنٌ ، ولا أهلٌ ولا جار ،
اذا نمنا ، اذا قمنا ، ردانا الخزى والعار ،
لقد خمّت بنا الدنيا ، كما خمّت بموتانا
فهات الرفش واتبعني لنحفر خندقاً آخر
نُوارى فيه أحيانا

الحنطة والزوان

(نظرة فى الأدبيات)

يتوهم البعض أنى أجد لذة كبيرة في التنديد بشعرنا وشعرائنا والمجاهرة بفقرنا الى الأدب والادباء. يقولون إنى لا أرى في حياتنا الادبية سوى جهتها السوداء ، وانى أحول نظرى عن كواكبها وشموسها، وانى لا وتر عندى أضرب عليه سوى وتر الندب ، وانى أسير فى حقل حياتنا فلا تقع عينى سوى على زوانه وأشواكه . وما حيلتى اذا كنت لا أرى من حولى سوى الزوان والشوك ؟ اذا شكوت فقرنا فلاعتقاد راسخ فى عقلى بأننا لن نسعى وراء تحسين حالتنا حتى ندرك كل ما فيها من البؤس والظلمة والخمول . واذا ندبت وجه يومنا القاتم فلأنى أؤمن بان فينا من القوى والمواهب ما يجعل يومنا باسما ويبدل ظلمتنا بنور . وأظن أن يومنا يتمخض بغد باهر لكن ولادة هذا الغد ستكون

محاطة بأوجاع مبرحة سيبنها لمنات أمسنا . ونحن نشعر الآن بهذه الاوجاع لكننا نحتملها كما تحتملها الوالدة التي ستصبح إما .

وفى « الأيوبيات » نرى صورة هذا الدور الانتقالى الذي نتكلم عنه فى ديوان رشيد أيوب قد لامس طرف ليلنا أهداب فجرنا . وهذه حلاوة الديوان فى نظرنا .

من يطالع قصيدة « فرديناند وجيشه » أو « حنين » أو « رثاء المطران هواويني » أو « وقفة على المدسن » وسواها ولا يسمع فيها أصوتا قديمة عرفناها وألفناها ومللها سمعنا ؟ أم من يقرأ أبياتا كهذه :

اذا مانسيم الشوق هز فريحتى   تساقط منها الدر فى روضة الشعر

أو —

لاشاع شعرى بما احتوى دررا   ولا تباهت بنظمى العرب

أو —

ألمت بصدرى كل نازلة اذا   ألمت بصم الراسيات تزعزع

الخ ...

— من يقرأ مثل هذه الابيات ولا يدرك على الفور انها رنات أوتار قديمة فى شعرنا أخذت والحمد لله تتقطع رويداً رويداً ؟

اذا سئمنا القديم ونبذناه فليس لاننا نعد كل قديم باليا فاسداً. ربما صعب على شاعر اليوم أن ينظم فى موضوع لم تتناوله قرائح الشعراء قبله ربما لم يترك لنا امرؤ القيس والنابغة والمتنبي وأبو تمام وسوفوكلس وهوميروس ودانتي وشكسبير وملتون ما نقدر ان ننظم اليوم فيه الشعر وندعوه جديداً لكن الشاعر الحقيقى من يري هذه الاشياء نفسها فيطرحها فى أتون عواطفه ويعددها على سندان قريحته ويصقلها بصقل أفكاره ثم يقدمها لنا في هيأة جديدة تساعدنا لترتفع فوق اقذار الحياة وشناعتها الى جمال البقاء وكماله . وأكثر شعرائنا الذين يشكون قلة المواضيع الشعرية ، ولذلك يعالجون المطروق والمبتذل ، لم يدركوا هذه الحقيقة ـ ولعل أبناء الغد سيدركونها

اذا ضاقت بالشاعر الطبيعة كلها فلا يجب أن تضيق به نفسه . نفس الشاعر وقلبه خزينة لاتفرغ لمن يعرف

اسرارها ويفكر فى غوامضها . وهذه الخزينة هى التى لجأ اليها رشيد أيوب فاتحفنا منها ببعض هدايا ثمينة هى الحنطة فى ديوانه وما بقى فزوان . من هـذا القبيل نعد قصيدة « خليانى » هنا نسمع روح شاعر حقيقى نظرت الى ما حولها فرأت نفسها « غريبة » ورأت « شأنها عجيبا » ليس يحاولها « سوى الليل الطويل » لذلك تطلب أن تنفرد بنفسها وتصيح بل تتوسل - « خليانى ! » . هذه الروح نفسها تحيا مع الطبيعة فى كل أحوالها وأطوارها وتنشد —

أحب الشتاء لان له   منبابا كهى ثقيلا كثيف
وأهوى الربيع فانفاسه   دواء لجسمى العليل الضعيف
وأصبو الى الصيف متأنسا   بوحشة ليلى الطويل المخيف
وتشتاق نفسى الخريف وقد   تجنى علىّ زمان الخريف

هـذه النفثات من قلم الشاعر تكفر عن كل ما فى الديوان من المساوئ . تنسينا هنا بيتا ركيكا وهناك قافيـة « محشوة — لضرورة الشعر » .

لا فلسفة فى الديوان تقدر أن نعيرها هنا انتباها خاصا .

شاعرنا يكثر التأفف من أمور الحياة ولا يحاول أن يعلل ولو أبسطها . ففكر بأمر الموت والحياة فلم يجد جوابا سوى —

فلعمري ليس الا حلما ذلك الفردوس قصه الرواة

ثم عاد فوجد الأفضل أن يترك كل هذه الأمور المبهمة للخالق . لذلك ينصحنا —

خل الأمور لربها لا شيء في الدنيا عرف

هيهات تدرك ياءها مازلت تجهل ما الألف

دعى البعض رشيد أيوب « شاعراً رقيقا » ولا ننكر عليه « لقبه » لأن في بعض قصائده — كتلك التي يخاطب فيها شبابه — من الرقة مالا نراه في أشعار كثيرين من اخوانه في الفن . لكن أهمية « الأيوبيات » — كما قلنا سابقا — في انها تمثل الدور الحالي في حياة شعرنا — دور الانتقال — إذ قد جمعت بين القديم المستهجن والحديث المستحب . فيجب أن تطالع لما فيها من الرقة والحداثة .

النهر المتجمد

***

يا نهر ، هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير ؟
أم قد هرمت وخار عزمك فانثنيت عن المسير ؟
بالأمس كنت مرنماً بين الحدائق والزهور
نتلو على الدنيا وما فيها أحاديث الدهور
بالأمس كنت تسير لا تخشى الموانع فى الطريق
واليوم قد هبطت عليك سكينة اللحد العميق
بالأمس كنت اذا أتيتك باكيا سليتنى
واليوم صرت اذا أتيتك ضاحكا أبكيتنى
بالأمس كنت اذا سمعتَ تنهدي وتوجعى
تبكي . وها أبكي أنا وحدى ، ولا تبكى معى
ماذا جرى لك بعد ما قد كنت تهزج فى الصباح ؟
هل أجدتك كآبتى وسمعت ندبى والنواح ؟
ماذا جرى لك بعد ما قد كنت تنشد فى المسا ؟
هل داهمتك مصائب مثلى فأخرسك الأسى ؟

ما هذه الأكفان — أم هذى قيود من جليد
قد كبلتك وذللتك بها يد البرد الشديد ؟
ها حولك الصفصاف لا ورق عليه ولا جمال
يجثو كئيباً كلما مرّت به ريح الشمال
والحور يندب فوق رأسك ناثراً أغصانه
لا يسرح الحسّون فيه مردداً ألحانه
تأتيه أسراب من الغربان تنعق فى الفضا
فكأنها ترثى شبابا من حياتك قد مضى
وكأنها بنعيبها عند الصباح وفى المساء
جوق يشيع جسمك الصافى الى دار البقاء

* * *

لكن سينصرف الشتا وتعود أيام الربيع
فتفك جسمك من عقال مكنته يد الصقيع
وتكر موجتك النقية حرة نحو البحار
حبلى باسرار البقا تملى بانوار النهار
وتعود تبسم اذ يلاطف وجهك الصافى النسيم

وتعود تسبح فى مياهك أنجم الليل البهيم

والبدر يبسط من سماه عليك سترا من لجين

والشمس تستر بالازاهر منكبيك العاريين

والحور ينسى ماعتراه من المصائب والمحن

ويعود يشمخ انفه ويميس مخضر الفنن

وتعود للصفصاف بعد الشيب أيام الشباب

فيغرد الحسون فوق غصونه بدل الغراب

***

قد كان لى ، يانهر ، قلب ضاحك مثل المروج

حر كقلبك فيه أميال وآمال تموج

قد كان يضحى غير ما يمسى ولا يشكو الملل

واليوم قد جمدت كوجهك فيه أمواج الأمل

فتساوت الأيام فيه — صباحها ومساؤها

وتوازنت فيه الحياة — نعيمها وشقاؤها

سيان فيه غدا الربيع مع الخريف أو الشتاء ،

سيان نوح البائسين وضحك أبناء الصفاء

نبذته ضوضاء الحياة فمال عنها وانفرد
وغدا جمادا لايحن ولا يميل الى أحد .
وغدا غريبا بين قوم كان قبلا منهم
وغدوت بين الناس لغزا فيه لغز مبهم

***

يانهر ذا قلبي . أراه — كما أراك — مكبلا
والفرق أنك سوف تنشط من عقالك، وهو — لا ...

أيليا أبو ماضى

شاعر قرض الشعر وهو فى الرابعة عشرة من سنيه . فاصبح والشعر فيه ملكة والقوافى عبيد له خاضعة يقودها كيف شاء .

وُلد فى المحيدثة بلبنان سنة ١٨٨٩ وهاجر الى مصر سنة ١٩٠٠ ومكث فيها منصباً على المطالعة والدرس لنفسه حتى سنة ١٩١١ فغادرها الى أميركا . وسكن سنسناتى . ثم جاء نيويورك فى صيف عام سنة ١٩١٦ ليشتغل بالادب وله « ديوان أبى ماضى » . طبع الجزء الأول منه فى مصر والثانى فى نيويورك .

الفقير

همٌّ ألمَّ به مع الظلماء ... فنبا بمقلته عن الاغفاء
نفس أقام الحزن بين ضلوعه ... والحزن نارٌ غير ذات ضياء
يرعى نجوم الليل ليس به هوى ... ويخاله كلفاً بهنَّ الرائى
فى قلبه نار « الخليل » وانما ... فى وجنتيه أدمع « الخنساء »
قد عضه اليأس الشديد بنابه ... فى نفسه، والجوع فى الاحشاء
فأقام حلس الدار وهو كأنه ... لخلو تلك الدار فى بيداء
يبكى بكاء الطفل فارق أمه ... ما حيلة المحزون غير بكاء
حيران لا يدرى أيقتل نفسه ... عمداً فيخلص من اذى الدنياء
أم يستمر على الغضاضة والقذى ... والعيش لا يحلو مع الضراء
طرد الكرى وأقام يشكو ليله ... يا ليل طلت وطال فيك عنائى
يا ليل قد أغريت جسمى بالضنى ... حتى ليؤلم فقده أعضائى
ورميتنى يا ليل بالهم الذى ... يفرى الحشى والهم أعسر داء
يا ليل ما لك لا ترق لحالتى ... أتراك والأيام من أعدائى
يا ليل حسبى ما لقيت من الشقا ... رحماك لست بصخرة صماء

بن يا ظلام عن العيون فربما طلع الصباح وكان فيه عزائى

* * *

وارحمتا للبائسين فانهم موتى ونحسبهم من الاحياء
انى وجدت حظوظهم مسودة فكأنما قدت من الظلماء
أبداً يسرّ بنو الزمان وما لهم حظٌّ كغيرهم من السراء
ما فى أكفهم من الدنيا سوى أن يكثروا الاحلام بالنعماء
تدنوا بهم آمالهم نحو المنا هيهات يدنو بالخيال النائى
بطر الأنام من السرور وعندهم ان السرور مرادف العنقاء
انى لأحزن أن تكون نفوسهم
غرض الخطوب وعرضة الارزاء

* * *

أناما وقفت كي أشبب بالطلا مالى وللتشبيب بالصهباء
لا تسألونى المدح او وصف الدمى انى نبذت سفاسف الشعراء
باعوا لأجل المال ماء حياتهم مدحا وبت أصون ماء حياتى
لم يفهموا بالشعر الا أنه قد بات واسطة الى الاثراء
فلذاك ما لاقيت غير مشبب بالغانيات ، وطالب لعطاء

ضاقت به الدنيا الرحيبة فانثنى   بالشعر يستجدى بنى حواء
شق القريض بهم وما سعدوا به   لولاهمُ أضحى من السعداء
نادوا علينا بالمحبة والهوى   وصدورهم طويت على البغضاء
ألفوا الرياء فصار من عاداتهم   لعن المهيمن شخص كل مرائى
ان يغضبوا مما أقول فطالما   كره الأديب جماعة الغوغاء
أو ينكروا أدبى فلا تعجبوا   فالرمْد يؤلمهم طلوع ذكاء
أوَكلما نصر الحقيقة فاضل   قامت عليه قيامة السفهاء

*
* *

أنا ما وقفت اليوم فيكم موقفي   الا لأندب حالة التعساء
عزّ على أحرك بالقريض قلوبكم   ان القلوب مواطن الأهواء
لهفى على المحتاج بين ربوعكم   يمسى ويصبح وهو قيد شقاء
أمسى سواء ليله وصباحه   شتان بين الصبح والامساء
قطع القنوط عليه خيط رجائه   والمرء لا يحيا بغير رجاء
لهفى ولو أجدى التعيس تلهفى   لسفكت دمعى عنده ودمائى

*
* *

قل للغنى المستعز بماله   مهلا لقد أسرفت فى الخيلاء

جبلَ الفقيرُ أخوك من طين ومن ماء ، ومن طين جبلت وماء
فمن القساوة أن تكون منعما ويكون رهن مصائب وبلاء
وتظل ترفل بالحرير أمامه في حين قد أمسى بغير كساء
أتضن بالدينار في اسعافه وتجود بالآلاف في الفحشاء
أتصن أخاء فان فعلت كفيته ذلّ السؤال ومنّة البخلاء

***

اذوي اليسار وما اليسار بنافع ان لم يكن أهلوه أهل سخاء
كم ذا الجمود وما الكرم رهن البلى وبمَ الغرور وكلكم لفناء
ان الضعيف بحاجةٍ لنضاركم لا تقعدوا عن نصرة الضعفاء
أنا لا أذكّر منكم أهل الندى ليس الصحيح بحاجة لدواء
ان كانت الفقراء لا تجزيكم فالله يجزيكم عن الفقراء

?

قال الغراب وقد رأى كلف الورى
وهيامهم بالبلبل الصداح
لم لا تهيم بى المسامع مثله
ما الفرق بين جناحه وجناحى ؟
انى أشد قوى وأمضى مخلبا
فعلام نام الناس عن تمداحى ؟

***

أمفرق الاحباب عن أحبابهم
ومكدر باللذات والأفراح
كم فى السوائل من شبيه للطلا
فعلام ليس لها مقام الراح ؟
ليس الحظوظ من الجسوم وشكلها
السر كل السر فى الأرواح

والصوت من نغم السماء ولم تكن

ترضى السما الا عن الصلاح

حكم القضاء — فان نقمت على القضا

فاضرب بنفسك مدية الجراح !

متى يذكر الوطن النوم

جلست وقد هجع النافلون أفكر فى أمسنا والغد
وكيف استبد بنا الظالمون وجاروا على الشيخ والامرد
تخلت اللواعج بين الجفون وأن جهنم فى مرقدي
وضاق الفؤاد بما يكتم فأرسلت العين مدرارها

***

ذكرت الحروب وويلاتها وما صنع السيف والمدفع
وكيف تجور على ذاتها شعوب لها الرتبة الارفع
وتخضب بالدم راياتها وكانت تذم الذي تصنع
فباتت بما شيدت تهدم صروح العلوم وأسوارها

***

نساء تجود بأولادها على الموت والموت لا يرحم
وجند تذود بأكبادها عن الارض والارض لا تعلم
وتغذو الطيور بأجسادها فان عطشت فالشراب الدم

وفي كل منزلة مأتم نشق به الغيد أزرارها

***

لقد شبع الذئب والاجدال واقفرت الدور والاربع
فكم يقتل الجحفلَ الجحفلُ ويفتك بالاروع الاروع
ولن يرجع القتل من قتلوا ولن يستعيدوا الذى ضيعوا
فبئسَ الالي بالوغى علموا وبئس الالى أججوا نارها

***

أمن أجل أن يسلم الواحد تطل الدماء وتفنى الالوف
ويزرع أولاده الوالد لتحصدهم شفرات السيوف
أمور يحار بها الناقد وتدمى فؤاد اللبيب الحصيف
فياليت شعرى متى نفهم معانى الحياة وأسرارها ؟

***

وحولت طرفى الى المشرق فلم أر غير جبال الغيوم
تحول على بدره المشرق كما اجتمعت حول قسى النموم
فاسندت رأسى الى مرفقى وقلت وقد غلبتنى الهموم

بربك أينها الانجم متى تضع الحرب أوزارها ؟

***

كما يقتل الطير فى الجنة ويقتنص الظبي فى السبسب
كذلك يجني على أمتى بلا سبب وبلا موجب
فتام تؤخذ بالقوة ويقتص منها ولم تذنب
وكم تستكين وتستسلم وقد بلغ السيل زنارها

***

وسيقت الى النطع سوق النعم مغاويرها ورجال الادب
وكل امرىء لم يمت بالخذم فقد قتلوه بسيف السغب
فما حرك الضيم فيها الشمم ولا رؤية الدم فيها الغضب
تبدلت الناس والانجم ولما تبدل أطوارها

***

أرى الليث يدفع عن غيضته بأنيابه وبأظفاره
ويجتمع النمل فى قريته اذا خشي الغدر من جاره
ويخشى الهزار على وكنته فيدفع عنها بمنقاره
فلا الكاسرات ولا الضيغم ولا الشاة تمدح جزارها

عجبت من الضاحك اللاعب وأهلوه بين القنا والسيوف
يبيتون فى وجل ناصب فان أصبحوا الجأوا للكهوف
وممن يصفق للضارب وأحبابه يجرعون الحتوف
متى يذكر الوطن النوم كما تذكر الطير أوكارها

الياس فرحات

خصلة الشعر

خصلة الشعر التي أعطيتنيها   عند ما البين دعاني بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيها   وسأتلوها الى اليوم الأخير

***

خنت عهد الحب لا بأس فاني   مكتف بالأثر الحلو الثمين
فانا ما عدت أحيا بالتمني   بعد ما منيتني عشر سنين
أشكر الله فما الاخلاف مني   انني كنت لك الصب الامين
راجعي سيرة حبي ، راجعيها   في نور ساطع للمستنير
واذا مرت بك الريح سليها   انها تعرف من أمري الكثير

***

هيكل الحب نداعي وترامى   تاركا للعين أطلال الوفاء
كتبا توقظ في قلبي الهياما   كلما نام على ذكر الجفاء
انني أرنو الى الحظ احتراما   فأرى في الحظ اقاض الرجاء
وأرى الأسطر آثاراً تقيها   غير في الشماء من عبث العصور

وأرى الحبر وقد جف، شبيها   بدم جف على بعض الصخور

***

وارى فيها أرى شكلا مريعا خصلة الشعر أراها فاخال
جثة الحب ، وقد خر صريعا
تحت انقاض عليها الدمع سال
فيفيض القلب من عيني دموعا
وتغيب الروح عن دنيا الضلال
تلك آثار هوانا فانظريها
تعلمي ما ذا جنى ذاك الغرور
ودموع صنتها لا تذرفيها
ليس يمحو جرمك الدمع الغزير

***

ربطة القلبين حلتها يداك   ويدى تأبى امتهان الشعرات
لم يحركها الى الاثم جفاك   فهي لا تعرف غير الحسنات
لمسها مجموعة الشعر يحاكى   لمس هذا الثغر تلك الوجنات!

ان أعد يوماً الى الحى تريها مثلما سلمتها يوم المسير
هى كالطفلة في حضن أبيها لا ترى الا حناناً وشعور

***

هى اصفى منك حباً ووداداً هى أوفى منك رعياً للذمم
هى فى غى الصبى لم تتمادى هى لم تتبع هوى جر ندم
أنت عوضت من الحب العمادا أنت خنت العهد عمدا وهى لم
لم تراوغ ، لم ترى الصب بغيها عسلا والحقد فى القلب يثور
قد وفتنى وأنا أيضاً أفيها فكلانا حافظ عهد العشير

***

كلما أذكر أيام صبانا ولياليها اللذيذات العذاب
تصهر الاحزان فى قلبي الجنانا وأقاسى كل انواع العذاب
فاذا أبصرت ان الموت حانا وتصورت نزولى فى التراب
نشقه من خصلة الشعر تليها قبلة تخمد ذيالك السعير
فتخوض النفس بحر الانس فيها
ويزول الياس عن قلبي الكسير

يا حمامه

يا عروس الروض يا ذات الجناحْ — يا حمامه
سافرى مصحوبةً عنـد الصباحْ — بالسلامه
واحملى شوق فؤادٍ ذى جراحْ — وهيامه

***

أسرعى من قبـل يشتدّ الهجير — بالنزوح
واسجعى ما بين أمواج الأثير — مثل روحى
واذا لاح لك الروض النضير — فاستريحى

***

رفرفى فى روضة «الافق الجميل [1]» — وتغنى
وانظرى محبوبتى عندَ الأصيل — وتأنى
فهى إن تسألك عن صبٍ عليل — كان عنى

***

(١) تعريب اسم (بللواوريزنتي) عاصمة ولاية ميناس حيث قضى الناظم نحواً من سنتين.

خبريها : أن قلب المستهام — ذاب وجداً
وسليها كيف ذيّاك الغرام — صار صداً ؟
فهيامى لم يصد فيها هيام — بل تعدّى

* * *

ذكريها بأوقات اللقاء — والتصابى
حين كنا كل صبح ومساء — فى اقتراب
علّ بالتذكار لى بعض الشفاء — من عذابى

* * *

فاذا ما أظهرت حباً ولين — واشتياقا
فاجعلى ما بيننا عهداً مكين — واتفاقا
وسليها رأيها فى أى حين — نتلاقى ؟

* * *

واذا أبدت جفاء وصدود — واعتساقا
فاتركيها . انها فى ذا الوجود — ستُكافا :
حين يأتيها زمان فتريد — ونجافى

* * *

وغداً ان أبــل الفصل الضيف — برعوده

ما الذى يبق من الورد اللطيف — غيرعوده ؟

ان الحسن ربيعاً وخريف — فى وجوده

أليف

ترنيمة السرير

ظلام الويل قد جنّا ‏ ‏ ‏ وبوق الهم قد رنّا
فنم ياطفل ، لا يهنا ‏ ‏ ‏ غنى بات شبعانا

فنام اليأس غطانا ‏ ‏ ‏ فنم ، لا عين ترعانا
اذا ما صبحنا حانا ‏ ‏ ‏ حسبنا الصبح أكفانا

ألا يا أمّ ، يكفينا ‏ ‏ ‏ لقد جفت مآقينا
لو ان الدمع يغذونا ‏ ‏ ‏ أكلنا بعض بلوانا

بكى طفلى وما ناما ‏ ‏ ‏ وقضّى العمر صوّاما
جنى الآباء آثاما ‏ ‏ ‏ عليها الله جازانا

بكى طفلى فلا يرضع ‏ ‏ ‏ ثديّا درّها الدمع

نضا دمعى ولم يشبع وكان الدمع طوفانا

***

ظلام الليل قد أطفا نجوماً تجذب الطرفا
فما للطفل لا ينفق أيبنى اليوم الحانا؟

من الألحان لا أدرى سوى أنشودة الصبر
أغنيها من القهر لطفل بات جوعانا

ملاك الرب فى الحلم يناجى الطفل كالأم
يناديه من النجم ألا نم ؛ وقتنا حانا

يناجيــه بأيام ستأتي ، خيرها طام
سيروى ماؤها الظامى ويشفى النور عميانا

ويهديه الى قطر كثير النور والزهر
ويأويه الى قصرٍ فيغدو الطفل سلطانا

فيؤتى بالذي يرغب　　من المأكول والمشرب
فيبقى منهما الاطيب　　لأم صبرها خانا

***

أصوتي ذاك قد غنى ؟　　أقلبي ذاك قد أنا ؟
كفى ندباً ، كفى حزناً ،　　فقلب الطفل ما لآنا

هزيز الريح ما يسمع　　وندب الروح ما أسمع
كلانا منصت يخشع　　الى الاصوات حيرانا

ظلام الليل قد أطبق　　فنم يا طفل لا تقلق
يعود النور والرونق　　اذا ما الله أبقانا

النهاية

كفنوه !

وادفنوهُ

و اسكنوهُ

هوّة اللحد العميق .

واذهبوا لا تندبوه، فهو شعبٌ

ميّت ليس يُفيق

***

ذلّلوهُ

قتلوهُ

حمّلوهُ

فوق ما كان يطيق .

حمل الذل بصبر من دهور

فهو فى الذل عريق

***

هتك عرضٍ،
نهب أرضٍ،
شنق بعضٍ
لم تحرك غضبه.
فلماذا نذرف الدمع جزافاً ؟
ليس تحيا الخطيه.

***

لا وربي !
ما الشعبِ
دون قلبٍ
غير موتٍ من هبه.
فدعوا التاريخ يطوي سفر ضعفٍ
ويصفي كتبه

***

ولتتاجرْ
في المهاجر

ولنفاخر

بمزايانا الحسان.

ما علينا ان قضى الشعب جميعاً —

أفلسنا فى أمان ؟

***

رب ثارٍ

رب عارٍ

رب نارٍ

حركت قلب الجبان —

كل ذي فينا ، ولكن لم تحرك

ساكناً الا اللسان.

امين مشرق

فى الليل

***

بعدما تسرع ساعات الضجر ذاهبات بنهار الكمد
أتسلى فيك ياليل السمر أنت سلوى اليائس المنفرد

***

أنا ياليل غريب مبهم وكذا أنت بهيم وغريب
وعجيب فى الحشا ما اكتم والذى تكتمه أنت عجيب
وكلانا قد براه السقمُ وكلانا ليس يأسوه طبيب
قد تماثلنا شقاء وكدر وتشابهنا بصمت أبدي
رب صمت ضم معنى وخبر لذكاء العاقل المتقد

***

اسرعت رجل الاسى تدنو الىّ
فسعت من خوفها تسعى اليك

وطما يوى باحزانى على ‌‌ فهى قلبى باشجانى عليك
ادمئاً اسكبها من مقلتى ‌‌ على فيها راحتى ، فى راحتيك
ولوانى اسطعت دمعى ما انتثر ‌‌ واصطبارى قلة من جلمد
ولو انى اسطعت سرى ماظهر ‌‌ بعد ما كتمته فى كبدى

***

خلت قلبى ناسياً عهد الهوى
وظننت الوجد من صدرى ذهب
فتشامخت على أهل الجوى ‌‌ وتضاحكت افتخاراً وطرب
ولنفسى قلت إن مال السوى ‌‌ فتصابى فلك المجد طلب
فاذا بى نسمة عند السحر ‌‌ سرحت مثل لهاث الولد
هف قلبى فتلقاها وطفر ‌‌ طائشاً من وجده لا يهتدى

***

آه أحلام الصبا كم حملت ‌‌ بجناحيها نفوس العاشقين
آه أوهام الصبا كم حولت
عن طريق المجد مجرى السالكين
آه أشواق الصبا كم قتلت ‌‌ بجواها من بنات وبنين

مات عيشى قبل موتى واندثر　　بين عينين وشعر أسود
ونهـود فى قـدود كالثمر　　وخدود فوقها الورد الندى

***

مصت الاشواق روحى مثلما　　مصت الريح عبير النرجس
وأنا بالذكر أحيـا ألمـا　　شاديا فيما بقى من نفسى
« جادك الغيث اذا الغيث همى　　يازمان الوصل بالاندلس »
ياليالى الحب فى ضوء القمر　　يا مجالى الأنس المبتعـد
ذهبت لم يبق لى الا صور　　تتراءى بعدها فى خلدي

***

فى دمى للحب شوق وحنين　　وبنفسى للمعالى نزعات
فهو لا يترك لى الا الأنين　　وهى لا تورث غير الحسرات
ايها ، الليل اذا حظ الحزين ؟　　أيها الليل ، اذا سر الحياة ؟
بين آلام ووجـد وخطر　　نتمنى أننـا لم نولد !
راح أمسى بشـبابى ونفـر　　ياترى ماذا الاتى فى غدى

يا أمي

يا علة كياني ، ورفيقة أحزاني . يا رجائي في شدتي ، وعزائي في شقوتي . يا لذتي في حياتي ، وراحتي في مماتي ، يا حافظة عهدي ، ومطيبة سهدي ، وهادية رشدي ، ياضاحكة فوق مهدي ، وباكية فوق لحدي — أمي وما أحلاك يا أمي !

اذا تركني أهلي فأنت لا تتركيني ، وان ابتعد عني أحبابي فانت لا تبتعدين ، وان نقمت على جميع الحياة فأنت تصفحين وترحمين . أنت يامسكنة وجعي وألمي ، ومبيدة بؤسي وهمي ، أنت وما أصفاك يا أمي !

على بساط الأوجاع ولدتني ، وبأيادي الآلام ربيتني ، وبعيون الاتعاب رعيتني ، وبصدر المشقات حميتني . ثم كبرت فقلوت آلامك ، وهجرت وسلوت أيامك . هكذا نسيت رحمي ، واحتقرت دمي . فما اعقني ، وما أوفاك يا أمي !

قد غبت عنك يا امى فغاب عن عينى وجهك الباسم بملامحه الرقيقة الرزينة ، ومعانية الدقيقة الحنونة . وتراكمت على رأسى هموم الحياة بضجيجها الهائل فضعضعت فكرى ، وزلزلت قلبي . وتقاذفتنى أمواج المتاعب والشقاء فغرت فى لجج طامية ، وظلمات داجية ، وبعينين غشى عليهما الرعب نظرت من أعماق قنوطي فرأيت وجهك اللطيف الثابت يبتسم لى من الاقاصي البعيدة فبكيت وبكيت وصرخت « يا امى ! »

آه ما أقسي الغربة ، وما أمر الوحشة . قد كرهت البعاد يا أمى واشتاقت نفسى ماضيها الأمين . قد كرهت التمشى بين القصور الفخمة والمبانى الشاهقة واشتاق قلبي الى بيتنا الصغير المنفرد . قد كرهت روائح العطور الفائحة من التماثيل المتخطرة فى « برودواى » واشتاقت حواسى الى رائحة الامومة المنتشرة من فسطانك العتيق . قد كرهت نيويورك وكرهت أميركا وكرهت العالم ولم يبق لى فى الحياة الأك — الأك يا امى !

في المساء عنـد ما انطرح على فراشي الخشن القاسي أذكر يديك اللطيفتين الناعمتـين . وفي الليـل لما تمتزج أفكاري بأبخرة الأحلام أشعر بقدميك الصغيرتين ينقران الأرض حول سريري . وفي الصباح افتح عيني لأراك فلا أرى غير جدران غرفتي السوداء ، ولأسمعـك ، فلا أسمع غـير أصوات الغرباء . وفي النهار أمشي متلفتا بين النسـاء مفتشا مسائلا . أيتها النساء هل رأيتن أمي ؟ »

جراء الـكلاب تجلس في احضان امهاتهـا ، وفراخ الدجاج تحتمي تحت أجنحة امهاتها ، وغصون الاشجار تبقى معانقة امهاتها . وأنا — أنا وحـدي — بعيد عنك مشوق اليك يا أمي .

اذا مت يا امي ، اذا قتلني وجدي ، ودفنت آمالي في هذه الارض القاسية الغريبة ، فاجلسي عند الغروب قرب غابة السنديان وأصغي . هناك روحي امتزجت بنسمات الغابة وأشجارها يرتلن بهدوء متمايلات مرددات « يا أمي ! يا امي ! يا امي »

دموع الامل

***

أتاني الزمان على غفلة فأطفأ من عيشتي نورها
وماتت لأحيا الفتاة التي رأيت ولم أر لي غيرها
فكيف أكفكف من أدمعي وحزني يأكل في أضلعي

***

صغيرين كنا كفرخي حمام نعيش بظل الصبي الناضر
فنلعب آنا وآنا ننام وزندي على صدرها الطاهر
يلاعب شعراتها أصبعي وقلبي من سكره لا يعي

***

ويا ليلة بئس من ليلة يقطع قلبي تذكارها
أشدت عليها يد العلة وغابت من العين أنوارها
حنوت على جسمها الموجع وناديت ربي فلم يسمع

***

وماتت وقد همست مثلما يسر النسيم باذن الأراك

وقالت وقد نظرت للسما هناك بعيد التنائى أراك
فلا تبك يأساً ولا تجزع فما مات حبي ولم يهجع

***

أليلى لقد مات صبرى متى يعود التلاقى ويحيا الأمل
وراح الربيع وجاء الشتا وليل حياتى طويل الأجل
وضاق الوجود على موضعى وسد بوجهاته الأربع

***

أليلاى حزنى شديد صميم وجسمى أضعف من غله
وعقلى سقيم وعيشى أليم فما عدت أقوى على حمله
وعهدك فى القلب حي منى وصوتك ما زال فى مسمعي

***

يرى الناس صمتى ولا يعرفون فيحتقرون فؤادى الودود
فأمشى وأتركهم يهزأون لأنى غريب بهذا الوجود
أخي نفسي ولا ادّعي فليس بهذى الدنى مطمعي

***

أطارد همى بلحن الوتر ألوذ بأنّاته الواهيه

وأنظم شعرى كنظم الدرر فلا اللحن يجدى ولا القافيه
ولا كل هذا الورى مشبعى وأنت ذهبت فلا ترجعى

***

وحقك لولا الرجا بالخلود لذبت على يأسى المحرق
ولـكن لى أملا أن يعود صفاء الحياة وأن نلتقى
سأحمل حزنى الى مضجعى واجرع من كوبه المترع

***

فياروح ليـلاى ياراحتى وسوسنتى بين شوك البنات
ويا كل حبى ويامنيتى ويانور نفسى بليل الحياة
سلام على طهرك الارفع ويارب عجل على مصرعى

أردية الاباء

(باختصار)

الى اخوانى الشبان واخواتى الشابات الناظرين الى الحياة الجديدة بعيون المحبة والشوق — الى كل فتى وكل صبية ينظران الى أثواب الآباء بازدراء واشمئزاز والى كل قديم بكره ونفور — الى العقول المستنيرة التى تطلب الخروج من ظلمة الأوهام — الى الارواح المرتعشة حنينا الى الحرية، المتعطشة الى ينابيعها العذبة ـ الى النفوس الباسلة ، الكارهة جلجة السلاسل ، المتمردة على أجيال العبودية ـ الى جميعكم أيها البواسل ارفع صوتى بامل وافتخار وانادى ـ سيروا :

أمامنا عقبات كثيرة ، ولكنها ستذوب أمام العزم الذى لايذوب . وطريقنا طويلة طويلة فليكن صبرنا طويلا طويلا ولتكن هممنا شديدة شديدة. لاتلتفتوا الى خلف ولا تحاولوا اصلاح القديم فانه أصبح للموت بل اجتهدوا فى

اصلاح نفوسكم وفى تقوية ذواتكم لاستقبال الحياة ـ حياة الجديد ـ حياة القوة .

هبوا ! ولننفض عنا غبار الخضوع والطاعة العمياء .

أنت أيها الفتى ، وأنت أيتها الفتاة اللذان ربط الحب قلبيهما فتعاهدا على الزواج ، لماذا تخضعان لارادة والديكما فتمزج أنت حياتك بحياة لم توجد لها وتلتصقين أنت برجل لم يخلق لك ، لماذا تقتلان الحب لتحييا وهما يدعى الطاعة الوالدية ؛ وأى فضل تحرزانه فى هـذا العمل ؟ وأنت ، أيتها المرأة المظلومة ، التى تحمل « جزدانها » قارعة الأبواب من صباحها الى مسائها لتجمع بضعة ريالات ينثرها زوجها على مائدة القمار ويرجع ليـلا لمجازاتها بالشـتم والضرب ، لماذا لاتتركين هذا الزوج الفاسد وتبصقين فى وجهه ووجه كل مذهب وشريعة تربطك به الى الابد ؛ وأنت ، أيتها الصبية التى زوجوها صغيرة بكهل لاتميل اليه فتركته وآلت على نفسها أن تعيش حياتها وحيـدة لئلا يسلقها الناس بالسنتهم البذيئة ، لماذا تبعدين عنك شابا يعبـدك وتعبدينه اكراما

لتلك الألسنة ، ولماذا لاتدوسين كل قلنسوة ولحية تقفان بينكما وتفتشين حصرما فى عيون ترى الحقيقة عاراً وزنى ؟ قد بدأت فلماذا لاتكملين ؟ أنتم ، أيها المظلومون جميعكم لماذا لاتكسرون هذه القيود وتحطمون هذه السلاسل القديمة وتمرحون فى فضاء الجديد وتمتصمون فى معاقل القوة ؟ ؟

انظروا ـ ان كثيرين من ذوى العقول القديمة والنفوس الذليلة الخاضعين لضلال العصور المظلمة سيرمون هذه السطور بالجهالة والكفر ويضربون بها عرض الحائط باحتقار وغضب وعداء . أنا لا أبالى ، لان سطورى موجهة اليكم واليكم تذهب . هؤلاء القوم أصبحوا على حافة القبر ، فلا يخيفكم منهم وعيد ولا يغركم فيهم سكوت . اذا ضحكوا منكم فاضحكوا منهم . وان نصحوكم فسدوا آذانكم ولا تلتفتوا . وان وقفوا فى طريقكم فدوسوهم وسيروا . انما هم العدم وأنتم ـ الجديد ـ القوة

سيروا يا اخوتى ! انى أرى الثورة تقترب . كلما نظرت الى هذه الوجوه المتشنجه والسحنات المتقبضة وكلما تأملت بهذه العيون الحادة الملتهبة الساكنة تمثل لى من ورائها أرواح هائجة كالبحار ، متدفقـة كاللجج ، وقوس ملتهبة كالبراكين ، متواثبة كالصواعق ، وسمعت دمدمة بعيدة من أطراف الآفاق تقترب وتنجلى رويداً رويداً فأقول فى نفسى —

ثورة ! طوبى للمتمردين ! طوبى للأبطال !

من وراء الجثث المتدليـة من حبال المشانق — من وراء الأجساد الذائبـة على نيران التوجيع — من وراء الشراذم المتبددة فى جميع أقطار الأرض لا تحمل راية ولا تعرف وطناً — من وراء هـذه الأيام السوداء والليالى المخيفة المحشوة بالمهالك — من وراء جميع ذلك أري طلائع صبح ناصع البياض تبصبص فى جبينه أسلاك من نور شمس لامعة مبشرة باقتراب نهار ساطع . ووسط هـذا البهيق الجميل المهيب أرى عسكراً من الشبان المفتولى السواعد

والصبايا الموردات الخدود والأولاد الممتلئين نشاطاً وحركة يرفعون رؤسهم بكبر وافتخار ويصيحون بأصوات تكاد تطبق الأفق منشدين :

من نودى برداء ما رآه لأبيه
نعمةُ الله عليه وعلى كل بنيه

وليم كاتسفليس

قصة أم

١

تزوجته بلا حب ، ولكنها لم تكره على قبوله
فكانت بعملها هذا كالوف من سواها، وكان كألوف غيره
استمالها زخرف الزواج ، وأغرتها الثروة
وأكثر من هذا كله — جذبتها عاطفة الأمومة
عاطفة تولد مع الطفلة ، وتترعرع مع الابنة ، وتنمو مع الفتاة
فبين أخوها يلعب بالأكر تعانق الأبنة ألعوبتها ،
فتنتقل من الاعتناء بآخر ألعوبة الى العناية بأول ولد

***

وهو استماله فيها الجمال والتقوى والطهارة .
فالمرء يميل إلى ماليس فيه
وما أكثر مايقترن النمر المفترس بالحمل الوديع
وما أكثر ماتجمع الوسادة الواحدة فوق بياضها الناصع

قذارة الوحل وطهارة الزنبقة النقية

٢

انتهت الاحتفات بالعرس وهنأهما الناس .
وأصبحا فى عرف شريعة البشر شخصا واحدا .
ودخلت الفتاة مضجعا لم يدفعها اليه ميلها .
واحتملت قبلة لم تتولد الرغبة اليها فى نفسها ،
وعانقها زند لم يضطرب له قلبها ،
ولمستها شفتان لم يرتجف لمسها جسمها .
وهكذا تم تمثيل رواية الحب . وهى هى بطلة روايتها
فلم يصادف ذلك التقليد صدى فى اعماق أحشائها .
فكانت كالقربان على هيكل مولوخ الفظيع
تلتهم النيران جسدها ، والناس من حولها فرحون ،
لأنهم يرون الزخرف الخارجى ، والقلوب لا يرون .
فشعرت بفراغ من حولها كأن الدنيا خلت من ساكنيها .
كانت تشبع من الاكل ، ومن النوم ، وتلبس أفخر اللباس .
ولكن قلبها عطشان ونفسها جائعة قد ملأها اليأس .

اذ ترى زوجها يشتهى الجسم منها ولا يبالى بالنفس
فكانت كل قبلة منه كأنها طعنة ، وكل ضمة كأنها ذلة
وهكذا وقفت فتاة فى مأتم شبابها ،
وصبية باكية فوق ضريح صباها .

٣

وكأنما الطبيعة ندمت على قسوتها .
وأرادت محو اثمها والتعويض عن ظلامتها .
فأيدت السنة الأزلية والقاعدة الأبدية .

***

وأثمرت الفتاة بازدواج الحياة فيها . . . . .
تغيرت مجارى أفكارها المظلمة السوداء
وانقشعت الغيوم المتلبدة في جو حياتها .
اذ وجدت الحب : . . . حبها لذاتها :
تلك الذات التى ستلد ذاتا :

***

ولما جاء الصبي بين الابتسامة والألم .

رفعت رأسها من الوساده لتراه .
فشعرت أن الحياة جميلة بمرآه .
وصبت كل ما فى نفسها من الكنوز المكنوزة
وما فى قلبها من العواطف المخزونة
فوق ذلك الرأس الصغير الأصلع !

٤

تبسمت لها الحياة، لا بل ضحكت
وأصبحت شمسها تشرق من ثغر الطفل،
وسعادتها تتدفق من أصابعه الصغيرة .
ولكن واحسرتاه ! ماهذه الغيمة المتلبدة
فى جو حياتها الجديدة ؟
ويح للمرض ! ألم يجد سوى طفلها ؟
هى ليس لها فى العالم سواه
فما بال الاله يجربها هذه التجربة ؟

***

أسرع الأطباء وبذلوا فى معالجته العناية

ولكن المرض السارق كان كل يوم فى زيادة .
وكانت الأم كل يوم تقترب شبرا من القبر !
ثم جاء يوم اشتدت فيه وطأة الداء .
وحار فى أمره الأطباء
فدعوا لنجدتهم أستاذا شهيرا
فتح له العلم أبوابه المغلقة ، وكشف له أسراره الغامضة
جاء الاستاذ وفحص الطفل مليا
ثم نادى الاب واختلى به برهة .
ولما عاد الى سرير الطفل المحتضر
حيث الأم جاحظة العين ، محلولة الشعر
تنظر الى شفتيه لتقرأ عليهما الموت أو الحياة
كان جبين الأستاذ الشيخ مقطبا
فعطف على الام وقال لها متأثرا —
« يا ابنتى . لم يبق محل للأمل الكاذب .
« هذا الطفل سيعود عن قريب الى صانعه
« وانصح لك ألا تعرضى طفلا آخر للعذاب

« قبل أن يبرأ زوجك من علته ! »
فصاحت الفتاة وقد دارت من حولها الأرض
« زوجي ؟ ماهي علته ؟ وأي دخل لعلته بطفلي ؟ »
فقال الطبيب . « أن زوجك مصاب « بالداء »
ومن كانت هذه علته يجني على ولده ونسله ! »

٥

. لما عادت الفتاة الى رشدها كان الغلام قد قضى !
وأبوه واقف الى جانب السرير ، مطأطأ الرأس .
فنهضت ومشت الهوينا الى حيث زوجها
ولم تك في عينها دمعة ، لأن الدمع كان في قلبها
دنت منه فزاد رأسه انحناء .
وعلت جبهته حمرة كانت قد محتها السنون .
فقالت بهدوء كأن الجحيم لم يك في احشائها .
« يارجل . أنت قتلت سعادتي وهنائي ؟
« وجعلتني أمة بلا ارادة في مضجع العار !
« وسلبتني حتى ارثي من الطبيعة أمي !

« ولكنى لم أشك منك أو اليك ولم احتج .
« ولكن .. ولكن .. بأى حق تقتل طفلى ؟
« ماذا جناه نحوك ملاكى هذا . ياقاتل ؟
« بماذا أساء اليك حتى ذبحته ياقاتل ؟
« ماذا فعل حتى خنقته بيدك أيها الوحش ؟ »
ثم اختنق الكلام فى حلقها
وخرجت عيناها من حدقتيهما .
فضحكت ... ضحكت مقهقهة . وتركت الغرفة . .

٦

هنالك فى المقبرة ضريح صغير .
لاتذبل الزهور من حوله
لأن يد الحبيبة تحفظها زاهية زاهرة
زر الضريح الصغير قبيل الغروب
تجد هنالك امرأة كللها الشيب بثلوجه
جالسة على مقعد خشبى
كأنها تمثال الحزن الابدى

﴿ فهرس الكتاب ﴾